

زهرة الياسمين
أماني حمدان الحمامي

أماني حمدان العمامي

زهرة الياسمين

رواية

إهداء

إلى والدتي العزيزة، زهرة الياسمين خاصتي .

إلى أجمل زهرة رأيتها، أختي الغالية هويدا .

إلى من حفرتْ في أعماقي أثمن القيم، غاليتي أختي أم السعد .

إلى أسباب تقدمي وسعادتي في دنياي، صديقاتي

ورفيقاتي في الحياة . . .

رحاب عمر فلغوش .

شذى عبد السلام بلعيد .

يسرى سيف الدين حسين .

" إنتهى الياسمين من بستاني سيدتي..

وأخرها كانت بلون الدم...

غريب!...

وكأنما تودعك على طريقتها..

غادري ... آنستي "

: كلا ...كلا... أرجوك لا تفعل ذلك يا سيدي لآ....

: إخرسي.

وعم الصراخ في أرجاء المكان الذي هدء فجأتاً من أصوات الأنين بعد الخوف الذي ملأ القلوب وأسكتَ الأوجاع والآلآم ليعود صوتها بصرخة الألم الأخيرة قبل فقدانها للوعي

: ساقي .. ساقي .. آه....

وسط جمود حل على المكان ونظراتِ فزع على أعين من لازالتْ تبصر بهما، علا صوت أخرى قائلاً بشفقة: هذا مريع! لا يمكن لبشر فعلها أنتَ متوحش!

تسائل الصوت الرجوليّ الوحيد في تلك الغرفة: أوتجرؤين؟

.....

: آه عينآي ..عينآي.. هذا مؤلم آه عينآي.

ليتلاشى صراخها هي الأخرى في تلك الغرفة الباردة ذات الرائحة النتنه، تلك الغرفة أو بالأحرى تلك الغرف لا يسمع منها سوى البكاء والأنين والصراخ لايرى فيها إلا الدم الأحمر الناصع لا تضوع منها إلا رائحة الجثث العفنة لا يدخلها إلا إثنان المسكينة التي سُلبتْ كل شئ والمعذِّب المتلذذ بطعم الألم، غرفة باردة خاوية لا شئ فيها.

بهمس: ألديك قطعة قماش؟

: ولما تسئلين؟

: سأحاول إيقاف نزيفها.

: بربك إنها ميتة لا محاله، ألا ترين الياسمين الأحمر فوق جسدها؟

: أرآه ولازلتُ مصرة قد تنجو، هاتها.

....

: هكذا، أترين؟ لقد نجح الأمر.

: أوه بالفعل تبدو محكمة، أهي حية؟

: لحظة.

.....

.....

: أجل إنها حية.

لكن ماذا عني.. فأنا لا أسمع صوتاً ولا أرى ضوئاً ولا أتحسس شيئاً.

لا شيء سوى الظلام والكثـير من الألم...

***

إنتشر صوت دقات ساعة الحائط فخمة الطراز مشيرتاً إلى حلول منتصف الليل، كانتْ دندنات الموسيقى تلك بالنسبة لي الصوت الذي يشعرني بالسعادة مؤخرا، فهي تعني لي الكثير، أستطيع الآن العودة إلى منزلنا بعد نهار كنتُ قد قضيته في أعمال لا تنتهي، تأكدتُ من إتمامي المهام وتأهبتُ للخروج، إتجهتُ نحو الباب الرئيسي حاملتاً شمعدان تنتصب من فوقه شمعة تصارع الموت قررتُ أن تهب عليها رياح أنفاسي الدافئة لتريحها من عنائها، خرجتُ وبالكاد إستطعتُ السير حتى وصلتُ إلى المنزل، فتحتُ الباب بهدوء كلص يتسلل لسرقة منزل أحد أغنياء القرية.

تنهدتُ مستريحة وأنا أرى أخي فؤاد ينام كورقة شجرة خريفية قد إستلقتْ على الارض برقة بعد نضالها ضد رياح خريفية باردة هوجاء،قمتُ بتغطيته جيدا وأنطلقتُ إلى حيث ينام رامي الصغير دائما، فتحتُ الباب ببطء لأرآه نائماً في حظن أمي، طبعتُ على جبينها قبلة تكاد تكون في الهواء خِشْيَتَ إيقاظها، قمتُ بتبديل ملابسي وعدتُ إلى حيث ينام فؤاد وبمجرد أن وضعتُ رأسي على الوسادة نمت، ونمت بعمق كالعادة.

إستيقظتُ على بكاء رامي، تحركتُ بسرعة تاركتاً دفئ فراشٍ في يوم بارد، فقد خشيتُ على والدتي النهوض من فراشها في هذا البرد فذلك أمر مضر للمريض، أجل نسيتُ إخباركم بأن والدتي مريضة بمرض يعجز الطب على معرفةِ ما هيته إلى الآن، لا نعلم عنه شئ سوى أنه كالغول الشرس الذي يقطع جسدك من الداخل بهدوء، ولم نكتشف مرضها الا بعد وفاة والدي، فما عانته من مشاقّ بعدها جعل ذلك المرض اللعين يجد طريقه اليها.

وكم يعتصر قلبي ألماً عند مشاهدتِ من عانتِ المصاعب والألام المريعة في سبيل رؤيتي أبتسم تتعذب أمامي بكل بساطة تسعل بقوة لعينة وما إن أرمق كفيها حتى أرى دمائها الدافئة

قد إنسابتْ عليهما، ذلك الشعور .. كم هو مؤلم .. أرى كل ذلك ولا أستطيع فعل شيء سوى المشاهدة كغيري من الحثالة.

إنطلقتُ نحو رامي وما إن حملته بين ذراعي حتى رحتُ أغني له في صوت أشبه بالهمس تهويدتاً كنتُ بدوري أنام على ألحانها بصوت أمي العذب كما أحسب.

" نام .. نام .. نام صغيري نام .. نام بين يديه .. قطعتَ خيزران .. نام .. نام .. نام أغمض جفنيه .. نام أصبح ملك الأحلام "

لا أعلم سر حبي لهذه التهويدة ربما تذكرني بالماضي، أنا فقط أغنيها عند قيامي بعمل ما أو أغنيها لرامي كي ينام كما أفعل الآن.

أخيراً نام رامي وأغمض جفنيه الناعمين في هدوء أرحتُ جسمه الصغير بجانب أمي وحرصتُ على تدفئته جيداً كي لا يتسرب البرد إلى روحه الصغيرة، مسحتُ بأناملي على خصلاتِ شعره الذهبية، لم يرثه عن أمي كما أحسبكَ تتخيل بل كان شعر أبي هو المميز بهذا اللون وقد ورثه عنه رامي وزين فقط، أما أنا وفؤاد فقد ورثنى عن أمي لون شعرها الكستنائي الناصع.

ما إن هممتُ بالخروج حتى نادتْ أمي بإسمي بصوتٍ واهن "ردينة"

أسرعتُ نحو سريرها وأمسكتُ بيدها وقبلتها " حاضرة يا أماه"

إبتسمتْ إبتسامتها التي ما إن أراها حتى تندفع مشاعر السعادة والسرور إلى قلبي، إبتسمتُ بدوري فمن الأخرق الذي يرى الدنيا تبتسم له إبتسامة ملؤها الحب والسعادة ولا يبتسم، إزدان وجه أمي المستدير بتلك الإبتسامة وزاده إشراقاً رغم شحوب المرض البادي على محياها.

لكن رأيتُ وبوضوح عينيها تلمعان بحزن دفين إنسابتْ الدموع الحزينة على وجنتيها فأثار ذلك قلقي وخوفي معاً لذلك إندفعتُ أسألها وأنا أتحسس حرارة جبينها الطاهر بيديّ

: أمي ما بك؟ هل أنت بخير؟ بما تشعرين؟أخبريني.

إبتسمتْ بين دموعها وقالتْ بصوتٍ بدأتْ الرعشة تتخلله: حبيبتي .. أنا حقاً أسفه .. تقومين بأشياء فوق طاقة صغيرة مثلك .. وأنا هنا أشاهد فقط .. سامحيني يا بنيتي فلا أخفي عليك بأن جوفي يحترق بلهب الآلم وإلا لما كنتُ هنا طريحة الفراش.

مع كل كلمة لا بل كل حرف تنطق به شفتاها الشاحبتان أشعر بأنياب الحزن تغرز في قلبي كما لو كانتْ أنياب أسد قد إنهال على فريسة سهلة بعد جوع مميت، أما القشة التي قسمتْ ظهر البعير هي شكواها لي عن ألمها فهذا يعني بأنها تتألم أضعاف ما كنتُ أعتقده، إرتشفتُ دموعي التي أغرقتْ عينيَّ وقلتْ.

: عزيزتي لا يجب عليك قول هذا أقسم لك يا أماه لو كنتُ أستطيع أخذ المرض منك وإعطائك صحتي لفعلتُ حالاً، أما عن عملي فأنا في السابعة عشر من عمري كبيرة بما يكفي للإعانة زين، على كلٍ فأنا سأكمل العمل حتى بعد تحسنك إن شاء الله.

كانتْ تبتسم لي كما لو أن كلماتي قد أماطتْ ولو بالجزء اليسير من ألامها وقبل أن تتحرك شفتيها المرتعشتان قاطعتها فقد خفتُ أن تنهال عليها نوبات السعال الحادة تلك.

: والآن هيا نامي يا عزيزتي فلا يزال الوقت مبكراً على إستيقاظك هيا نامي .. نامي.

قمتُ بتغطيتها جيداً بينما أخذتْ ترمقني بنظراتِ السعادة والفخر تمطرني بوابل من الادعية

خرجتُ من الغرفة متجهتاً إلى المطبخ لأعد الفطور لإخوتي وأطعم البقرة وأنطلق إلى عملي بعدها، أكملتُ إعداد الفطور وهممتُ بالخروج لكن ما إن وقفتُ أمام الباب حتى فُتِح إنحنيتُ لأرى مَن خلفه وما إن لمحتُ رأسه الثائر حتى هتفتُ قائلة " زين! هل عدت؟ ".

يبدو عليه التعب والإنهاك حد الموت بِوَجهٍ شَاحبٍ شُحوباً مخيف كان يقف مكانه لا يتحرك قلتُ له بصوتٍ ملؤه القلق: زين هل أنت بخير؟

ما إن إقتربتُ منه حتى أسند يداً على الحائط وأخرى على كتفي ثم تمتم قائلا: بخير، لا تقلقي.

سار جاراً قدميه إلى أن وصل إلى الأريكة وارتمى عليها بجسده النحيل في وهن، حاله يرثى لها فمجرد نظرةٍ إليه تخبركَ بما قد ناله من تعب، حدثتهُ وأنا أسير لأحضر له كوباً من الماء.

: بالتأكيد هو العمل اللعين مجدداً، دعك منه فأنتَ في طريقكَ إلى الهلاك لا محاله ما رأيك في البحث عن عمل أكثر راحة؟

أحضرتُ كأس الماء ومددتها له فتناولها مني وقبل أن يتجرع منه نظر إلى النافذة التي قد طلتِ السماء منها فرحتاً بفراق السواد لتستقبل أشعة الشمس الدافئة قال بأسى بعد صمتٍ ظننتُ بأنه لن ينتهي.

: لقد بدأ المشرفون على الحمالين بإستخدام السوط لمن يتأخر، هذا ما أشك في قدرتي على تحمله.

إتسعتْ عيناي دهشتاً من وحشية هؤلاء بينما إمتلأ قلبي شفقتاً على أخي، جلستُ على الأريكة قِبَالتَهُ وصحتُ ساخطتاً ثائرتاً مِن هؤلاء.

: يجب عليك ترك العمل حالاً أنت لســ..

قاطعني وأنا أراه يضع سبابته على شفتيه ثم قال هامساً " أششش.. "

قلتُ هامستاً بدوري بعد أن تأكدتُ بأن فؤاد لم يستيقظ من صراخي وسط ذاك الهدوء: كلا ليس من المفترض عليك تحميل نفسك فوق طاقتها وإلى هذا الحد! يجب عليك تركه حالاً.

رأيتُ بوضوح إبتسامة سخرية تنطبع على شفتيه: وهل أنا مخير في تركه أم لا؟ ردينة فالتتفهمي موقفي رجاءً، إن المسؤلية الآن وبعد رحيل والدي رحمه الله تقع على كاهلي.

أجبته وأنا أعتدل في جلستي : أعلم أعلم فأنا أتفهمك جيداً كما أني لا آمرك بترك العمل بشكل قاطع، فقط إبحث عن أخر أكثر إنسانية.

قال بجدية : حسناً، إن تركتُ العمل من يضمن لي فرصة وجود بديل له؟ وكيف سنمضي فترة توقفي عن العمل تلك؟

ما إن هممتُ بالإجابة حتى قال مشيراً في لا مبالا: حسناً، حسناً أتركيني الآن أرتاح فلا داعي للخوض في نقاش عقيم، فأنا لن أتركه أبداً فدخله ممتاز.

تركته وقد إحمر وجهي حنقاً إنطلقتُ إلى عملي في قصرا لسيد حازم حيث أعمل كخادمة هناك، ولعملي هذا قصة أيضاً في البداية لم توافق أمي ولا زين كذلك، فقد كنتُ أنا من عرض عليهما ذلك فالسيد حازم أغنى من نعرفهم في الأرجاء فهو يملك قصراً ضخماً ينفرد عن القرية بأمتار قليلة توسلتُ إليهما لكي أعين زين على الإنفاق إلا أنهما أبيا وبشدة، وبعد أيام فوجئنى بقدوم خادم للسيد حازم يحمل رسالة منه يطلب فيها أن أكون خادمتاً في منزله فقد كان والدي بالنسبة له أعز صديق كما أدعى ذلك لأني لم أرى والدي بتاتاً معه في حوار حميمي من قبل سوى بعض المهمات والتي يتولى أحد خدمه تبليغها لوالدي مقابل مبلغ بسيط من المال وعلى هذه الصداقة المزعومة طلب مني العمل كخادمة مقابل مبلغ لابأس به إلا أن أمي وزين كانا عند موقفهما بالمعارضة، حتى آتى ذاك اليوم الذي إتجهتُ فيه إلى قصر السيد حازم عازمتاً على العمل هناك قابلتُ رئيس الخدم حيث تواصل مباشرتاً مع السيد حازم ليخبره عن قبولي

الطلب وأمره على ما أعتقد بأخذي إلى مكتبه للتوقيع على العقد، لاحظتُ شيئاً غريباً أثناء سيري متجهين إلى المكتب، قصر بهذا الحجم ولم أقابل في طريقي أياً من الخدم على كلٍ لم أكترث للأمر ودخلتُ متحمستاً خلف رئيس الخدم إلى غرفة يتوسطها مكتب كبير فخم طلب مني الجلوس ثم أحضر عقد العمل ليقرأه على مسامعي وأوقع أنا بدوري عليه، قلتُ في جوفي بسعادة " إنتهى الأمر فأنا الآن خادمة في قصرا لسيد حازم رسمياً " كنتُ محظوظة كفاية ليتم تعيني مساعدتاً لطباخة القصر وتسائلتُ في جوفي عن مدى حماقة من يعينني في مكان لا يجب أن أكون فيه، إتجهتُ لإرتداء الزي الخاص بالخدم وقد أعجبني كثيراً كما كنتُ مذهولتاً بضخامة القصر وفخامته كما بدأتُ الآن بملاحظة الخدم العبوسين كما يبدون دائماً أرشدني أحد الخدم إلى غرفة الطبخ لأدخل فأجد فتاة تكبرني بسنتين أو ثلاث حسب أعتقادي، لا أظن بأنها من السكان المحليين للقرية فملامحها الرقيقة لا توحي بذلك، عيناها تنبضان بالحياة تلمع ببريق صاف لطيف بلون رمادي ذاتُ شعر أسود قاتم وجه مستدير أبيض تشوبه الحمرة إزدان بإبتسامة عريضة حال رؤيتي، لم يلبث الخادم المسن حتى صاح بصوت قوي صاخب رغم كبر سنه: إنها المساعدة الجديدة علميها ما يلزم.

بعد ذلك أختفى خلف الباب بسرعة وما إن إستدرتُ ناحية الفتاة حتى وجدتها تتجه نحوي بسعادة أمسكتْ بكفي وصافحتني بحرارة.

: أوه يا إلهي كم أنا سعيدة بك صديقتي إسمي مايا وعمري عشرون، وأنتي ما هو إسمك؟

أجبتها وقد كنتُ مذهولتاً فاغرتَ الفاه من إستقبالها الحار: ردينة..

: إسمكِ جميل حقاً! يروق لفتاة بجمالك.

تمتمتُ في ضجر: ما بالها؟

قالتْ بحماس طفل سيذهب في نزهة: موعد الغذاء يقترب وأنتي لا تزالين مبتدئه، لذلك دعينا نبدأ الآن.

أجبتْ: أوه .. حاضرة.

ثم إنطلقتْ لتعلمني ماهي الكميات الملائمة للطهو لقصر بهذا الحجم والوصفات لأكثر الوجبات تحضيراً هنا والكثير من أساليب الطبخ، ما حيرني حقاً وكاد عقلي أن يجن من التفكير به هو الخضار، فقد كانتْ مقطعتاً جاهزة قد أحضرها خدم أقوياء في أواني ضخمة عملاقة كان ذاك السؤال يدور في خلدي معرقلاً فهمي لما تقول، لم أستطع كبته لذلك إنطلقتْ شفتاي قائلة: عفواً مايا! قبل أن آتي هل كنتِ المسؤولة الوحيدة عن إعداد الطعام لسكان هذا القصر؟وماذا عن هذه الخضار من أين تأتي أقصد من يقوم بتقطيعها؟

: في الحقيقة لا يتعدى دوري هنا سوى إضافة المقادير المختلفة في أزمنتها المناسبة لوضعها فالخضار وكما ترين يأتيني بها العديد من الخدم مقطعتاً جاهزتاً من الغرفة المجاورة.

سألتها بفضول: وهل لي أن أطّلع على تلك الغرفة؟

أجابتني بإبتسامتها العريضة المشرقة بترحاب: بالطبع يمكننا ذلك، لكن لننتهي من الطهو أولاً.

أجبتُ بحماس: حسناً لنكمل.

أنطلقنا نكمل الطهو بسعادة لم أعتدها تنتابني حال دخولي المطبخ في منزلنا حالما إنتهينا أتى الخدم مجدداً لنقله الى غرفة الطعام الخاصة بالعائلة، بعد تناولنا الغداء إتجهنا بدورنا نحو حديقة القصر التي تعادل حجمه بضعفين أو ثلاث، كانتْ الحديقة فاتنة مرتبة تتخللها جداول مياه قد حُفرتْ بما تحمله كلمة إتقان من معاني، أشجار كثيفة وزهور متنوعة رُتِبتْ

حسب فصائلها كما تتشعبُ طرق القرميد تحتنا لتتوزع في أرجاء الحديقة،جلسنا تحتَ شجرة الصنوبر التي يمتد ظلها على العشب الأخضر وأنطلقتْ مايا تستفتح حديثنا بحماس مجدداً .

: حسناً.. سأعرفك على أفراد العائلة، أولهم السيد حازم وكما يقال إسم على مسمى في الحقيقة لم أره سوى مراتٍ قليلة وحسب، ولم تره عيناي إلا متجهماً عبوساً لا ينطق إلا ليأمر، أما السيدة نرمين زوجته فائقة الجمال ودودة رقيقة تبدو كالأميراة في القصص الخيالية وهي متواضعة طيبة الخلق لديهما إبنة تدعى لينا ترث جمال أمها لكنها لا تعرف للأخلاق معنى متعجرفة متكبره دعينا منها فهي تثير في نفسي الغضب والإشمئزاز، أخيراً إبن العائلة صهيب ياله من فتى أبله متهور لكنه مرح للغاية أتصدقين؟ يأتي لزيارتي أحياناً في المطبخ لإلقاء النكات المضحكة على مسامعي لكن بما أنك شخص جاد نوعاً ما أظن بأنها لن تضحكك للأسف.

قلتُ باسمة: كلا أنا لستُ جادتاً كما أبدو لك الآن، هذا اليوم الأول لي هنا كما تعلمين ولم أعتد على المكان بما يكفي لإظهار حقيقتي ربما أنا أكثر بلاهة منه حتى.

: يا إلهي أنا متحمسة لكوني حصلتُ على صديقة حميمة أوه! لما كل هذا البرود ؟!.

: هه هه كلا انا أيضاً سعيدة بذلك.

: سأهديك في الغد قلادة تذكركِ بي حال النظر إليها هذا ما يحدث بين الأصدقاء في القصص الخيالية.

: الرحمة! تحبين ربط أو تشبيه أي شيء ترينه في الواقع بأحد قصصك الخيالية.

: آمم.. نعم كثيراً ما أفعل ذلك" إرتسمت ملامح الحزن على محياها الطفولي البريئ" وهل يزعجك الأمر؟سأتوقف عن ذلـ...

إندفعتُ أقاطعها بإبتسامتي المعتادة: كلا..كلا لم أقصد ذلك وإنما لاحظتُ تكرارك للأمر وحسب، على أي حال يبدو ذلك ممتعاً بالنسبة لك كما أنه لايضايقني.

: بالتأكيد أحببتُ ذلك منذ الصغر كانتْ الكتب هي ملاذي الوحيد من الملل أوتصدقين؟ كنتُ منطوية لا أحب تواجد أقراني حولي، أكرههم جميعاً لسبب أجهله.

: من يرى حالك الآن لا يصدق ما تنطقين به بتاتاً.

: لطالما تمنتْ والدتي رؤيتي ألعب أو أنسجم مع أحد ما آن ذاك، وصلتُ إلى درجةٍ ظن الجميع فيها بأني قد أصبتُ بمرض ما وقد كانتْ تلك الفترة عقب وفاتها" طأطأتْ برأسها في حزن وشرعتْ بالرسم على الثرى بأصابعها" ولكن حدث ما عجز الجميع عن تصديقه فقد تغيرتْ شخصيتي كلياً إلى ما هي عليه الآن للأسف فقد حدث هذا بعد وفاتها بفترة طويلة كم أتمنى أن تراني على هذا الحال الذي لا طالما رجتْ من الله أن ترني فيه.

شعرتُ بحزن شديد لمعرفتي بقصتها فلم يخطر ببالي أن فتاة بمثل برائتها ولطافتها وسعادتها قد تحمل في ماضيها هذه المأسي، إستلقيتُ على الأرض ورحتُ أرنو إلى السماء الصافية المشعة دفئاً وقلتُ بثقة: هي بالتأكيد تشاهدك الآن وهي سعيدة لما وصلتي إليه وما أنتي عليه.

: كم أتمنى ذلك حقاً.

: لكن هل لي بسؤال؟.

: تفضلي.

: إن كانتْ والدتكِ قد توفيتْ، هل تقطنين الآن مع والدك؟

: أعيش الآن في إحدى غرف هذا القصر كخادمةٍ مقيمة، أما والدي فقد قُتِلَ ورحل هو الآخر مذ كنتُ صغيرة، كما تعتقد جدتي سبب ازدياد كآبتي هو قتله أمامي.

أظهرتُ ملامح الإرتياع والهلع: ماذا ؟! من فعل ذلك؟! بالتأكيد هو شخص متوحش ليتمكن من فعلها أمام طفلة صغيرة.

: أمي هي من قتلته.

: أمك ؟؟! أتمزحين؟ بربك هل هذا وقت للمزاح هيا قولي الحقيقة.

: لم يكن ذلك بمزاح إنها أمي، هي من فعلها فقد كانتْ مصابة بإحدى الأمراض العقلية التي يروى عنها الأساطير أن روحاً أخرى تأتي لتسكن الجسد نفسه فيصبح للجسد الواحد شخصان مستقلان يتنافسان على المسكن، وقامتْ بذلك في إحدى نوباتها وكان حظها سئ كفاية لتعود إلى رشدها بمجرد قتله بذلك تكون شهدتْ على فعلتها، والحقيقة الأكثر رعباً هي موتها إثر الصدمة فقد كانتْ تعلم بأنها مقربة إلى والدي رغم مرضها وقد كان يبذل قصارى جهده ليقنعها أن حياتها طبيعية وكرد للجميل تقتله بذلك خسرتُ كلى والدي في يوم واحد.

قلتُ في أسى وخجل من سؤالي: أنا أسفة، أسفة حقا لأجلك.

إنفرج فاها عن اللّآلئ المصطفة داخله في تناغم ضاحكتاً بصوتٍ عذب، وقفتْ برشاقة لتمد كفاها نحوي بسعادة: هيا يا صديقتي فلا توجد فائدة من تذكر الماضي، لنكمل عملنا.

تسائلتُ بعد أن أمسكتُ بيديها وسحبتني بقوة لأقف: وماذا بعد؟ ألا ينتهي الأمر بإعدادنا لوجبة الغداء؟

: يحب سيدي شرب القهوة مع بعض الكعك الذي أحضره.

تسائلتُ بملامح التعجب التي تنطبع على محياي : يال شراهته! بعد تناول الغداء بفترة قصيرة للغاية؟

أجابتْ بإبتسامة: لا يتناول سيدي التحلية بعد تناوله الطعام بل يتركها مع فنجان ساخن من القهوة ألا يبدو هذا لذيذاً؟

: آمم... ربما.

إنطلقنا نحو غرفة الطبخ وطِيلَتَ الطريق كانتْ مايا تدندن أغنية ذاتَ لحن غريب من الألحان التي تجد نفسك تعيد دندنتها دون وعي، كان بعض ما أسمعه بوضوح منها هو" أيتها الفراشة.. رفرفي بعيداً.. بعيداً جداً عن ياسمينتي.. وإلا فسؤقع جناحيك الفاتنتين ...وأنا أراقب صامته"

ما إن دخلنا حتى شرعتْ مايا في تحظير الحلوى اللذيذة أما أنا فقد جلستُ أراقب أزهار الحديقة بألوانها الناصعة التي تنبض بَتَلاتُهَا بحيويةِ الطبيعة تتمايل في جداولها بالإضافة إلى الهواء العليل الذي يتسلل من النافذة ليلامس وجهك ويدخل إلى رئتيك فيعيد الحياة إلى جسدك، من بين تلك الزهور توقفتْ عيناي على الياسمين فهي زهوري المفضلة بينما كنتُ أستمتع بهذا المنظر كنتُ أستمع أيضاً إلى دندنات مايا بذاك اللحن، ووسط تأملي نطقتْ شفتاي.

: يبدو بأن العائلة تحظى ببستاني متفاني جداً في عمله فالحديقة رائعة وهي أكبر دليل على تفانيه.

: أتعلمين؟ لطالما حيرنا لغز البستاني ذاك فأنا أيضاً متعجبة، بستاني الحديقة رجل يبلغ من العمر خمس وثلاثين عاماً على ما أعتقد إلا أنه كسول للغاية وهذه الصفة ليستْ جيدة لرجل يعمل كبستاني كما أنه قد كان منذ شبابه رجلاً سليط اللسان ذو سمعة بشعة لهذا جميع الخدم يتجنبونه هنا فاحذري منه أنتي أيضاً.

ثم أردفتْ: وفي نهاية المطاف وبعد كل ما يقال عنه وجد عملاً كريماً له.

أجبتُ بتعجب: إنتظري! لدي سؤالان الأول كيف تكون الحديقة بهذا الجمال وهو لا يهتم بها؟ الثاني ألـم يسمع السيد حازم عن سمعتِ ذاك الرجل؟ كيف يوظفه هنا ويثق به؟

وبينما هي تطل على الفرن مراقبتاً كعكة التفاح التي حضرتها بإتقان وسرعة طاهية محترفة كانتْ تجيبني: دعيني أُجبكِ عن الثاني أولاً، لا أظن بأن السيد لا يعلم بأمر البستاني جواد وإنما أراد أن يعطيه فرصة ربما لإصلاح نفسه وعفى الله عما سلف، أما عن السؤال الثاني فهذا هو ما حير الجميع هو لايعمل والحديقة رائعة، هه هه مثير صحيح؟

تسائلتْ: ولما لا يسأله أحد؟

أجابَتْ بعد ضحكة قصيرة: يا عزيزتي البريئة، حسناً ما رأيك في الذهاب إلى شخصٍ مستعد لضربي في أي لحظة والإبتسام أمامه وقول" هيه يا رجل! أنتَ تتمدد طوال النهار في غرفتك ولا تقوم بشئ سوى الإستلقاء ومع هذا الحديقة جميلة" ثم أبتسم وبالتأكيد سأجتهد لحفر قبري بعدها.

قلتُ: هذا أمر غريب سأكون أول من يحاول إذاً.

أجَابَتْ:حذرتك والخيار لك، ربما في أفضل الحالات .. ستموتين.

وبينما كدتُ أنطق إنفتح الباب بقوة ليظهر من خلفه فتى يرتدي ملابس النبلاء يتميز شعره بالكستنائي الفاتح وهو اللون الشائع لسكان البلدة هنا، أزرق العينين واسعهما لكن تبدو عليه ملامح البلاهة بوضوح، تقدم نحو الطاولة ضاحكاً وبعد أن صاح بإسم مايا أردف وهو يسحب إحدى الكراسي ويجلس قائلا: لن تحزري أبداً تتمة هذه النكتة .. إنها .. إنها رائعة ومضحكة أيضاً رباه هه هه .. سأبدأ .. كانتْ هناك سمكة وضفدع وما إن رأى الضفدع السمكة حتى صاح قائلا...آآآآ من هذه الفتاة ..." قال ذاك بعد أن رآني.

تعجبتْ مايا لكلامه وقالتْ مبتسمه: كلا أحفظ هذه أيضاً لا يقول آآآ من هذه الفتاة بل .. آآآ من هذه السمكة.

قال ولا يزال متسمراً في مكانه: لا أنا أتسائل حقاً، من هذه؟" مشيراً بسبابته نحوي.

وقفتُ وقد إحمرتْ وجنتاي غضباً: ترتدي زي النبلاء لكن لا تعلم شئ عن النبل كيف تسأل بهذا الأسلوب الدنئ أيها أحمق؟

إتجهتْ مايا نحوي محاولتاً تهدئتي ثم قالتْ من بين أسنانها بحنق هامسة: هذا الفتى هناك هو إبن السيد حازم، صهيب أتذكرين؟

أبعدتْ ردينة مايا بلطف وأكملتْ حديثها لصهيب: أوه! إذاً أنت هو إبن السيد حازم ها؟

سعدتْ مايا لأن ردينة لم تقل كلاماً يتسبب في شحن الأجواء، بينما كان صهيب يبتسم بفخرفأردفتْ ردينة هادمتاً توقعاتِ الجميع: أتصدق؟! لقد ظننتك ذاك البستاني سئ السمعة فقد هجرتك الأخلاق أنت الآخر.

مايا: كلا يا ويلي.

إبتسم صهيب وقال متغابياً غاضاً النظر عن أسلوبها: كلا، كلا يبدو بأنكِ لا تفقهين شئ عن ذاك البستاني، لقد تحدثتُ معه ذات مرة إنه لا يجيد قول النكات الرائعة مثلي، حتى إن ملامحه جامدتاً ولا تصلح للضحك.

مايا وهي تخرج قالب كعكة التفاح واضعتاً إياه على الطاولة لكي تبعد صهيب عن ردينة: هيا يارفاق ها هي الكعكة جاهزة.

صاح صهيب بسعادة: ياه! كعكة التفاح كم إشتقتُ لك.

مايا: لقد أعددتها بالأمس.

أجاب: وهذا وقت كاف لأشتاق إليها.

حانتْ من صهيب إلتفاتة إلى ساعة الحائط المثبتة على جدران المطبخ: أوه! إنها الثالثة مساء ألـم تتأخري على والدي بما فيه الكفاية؟

صاحتْ مايا: يا ويلي لقد تأخرتْ.

ثم شرعتْ بتجهيز كل شئ بسرعة وقد كنتُ أساعدها بدوري أما صهيب فقد أخذ قطعةً من الكعكة وخرج قائلاً: أعدكما غداً بنكتةٍ تُضحِكُ السمكة الجديدة.

إبتسمتْ مايا بينما أخذتُ أنا بنعته بالأبله، أكملنا العمل ثم جلسنا نتحدثُ أنا ومايا عن مواضيع عدة إلى أن أقبل المساء حاملاً في جعبته المزيد من العمل فقد إقترب وقت العشاء وتوجب عليّ حفظ المزيد من القوانين التي تخص الطهو وعلى النقيض مما توقعتْ فقد إنتهينا من إعداده بسرعةٍ نسبية وها هو وقت المغادرة والعودة إلى المنزل يحين بحلول منتصف الليل.

: لقد كان اليوم ممتعاً للغاية أشكرك.

هذا ما قلتهُ لمـايا مودعتاً إياها فأجابتْ: هذا عملك من الآن فصاعداً ونحن لم نكن في رحلة أو ما شابه لذلك لا داعي للشكر، إلى اللقاء.

وبهذه الكلمة إنتهى يومي الأول كخادمة في قصر السيد حازم، تتالتْ الأيام بعدها وكان كل يوم يختلف عن الآخر، فلم أشعر يوماً بضيق أو حزن أو ملل فقد كان الجميع يهتم بأموره الخاصة تاركاً المشاكل بعيداً عنه، كما أحضرتْ مايا لي عقداً كما وعدتني وهو في غاية الروعة أما صهيب لم ينجح في قول نكتةٍ مضحكة حتى الآن وقد أكملتْها مايا كُلها كالعادة يرحل في كل مرة بعد أن نتشاجر وتحاول مايا تهدئتنا في قلة حيلة، قابلتُ لينا إبنة العائلة وقد كانتْ كما

أخبرتني مايا تثير الغضب لمجرد رؤيتها، أما عن البستاني فقد نسيتُ أمره فلم أجد الوقت للتسكع في الحديقة بالإضافة إلى أنه يستيقظ ليلاً لأنه لا يحب رؤية أحد، مع مرور الوقت وازدياد ذكرياتي عن هذا المكان أزداد تعلقي به، في كل مرة أبتسم فيها هنا أشعر بحبي لتفاصيل هذا القصر، لقد أحببت عملي هنا حيث آكل مع مايا الحلوى تحت ظل شجرة الصنوبر وبجانب زهور الياسمين الرائعة ونتبادل الأحاديث حيث أصبحتْ لدي ذكريات عدة حول كعكة التفاح مؤخراً كما أنها حلواي المفضلة الآن، كل شئ مثالي هنا داخل أسواره، كما أن صحة أمي في تحسن أما أخي زين فلم يترك العمل وحالته في تدهور مستمر، مر على بدء عملي هنا ستة وأربعون يوماً قضيتها راضياً عن عملي كما كوّنتُ صداقات جديدة هنا أعزها لي كانتْ مايا، حتى أتى ذلك اليوم والذي كان إحدى أيام العمل الإعتيادية لكن وقبل عودتي إلى المنزل وبينما كنتُ متجهاً نحو البوابة الرئيسية للخروج، لمحتُ ضوء لمصباح يتحرك بهدوء بين بساتين الزهور ولبعد المسافة وطول وكثافة الأشجار والبساتين لم أرى بوضوح من كان يقف هناك إنتابني الخوف الشديد لحظتها حتى إني فكرتُ بفتح البوابة والهرب بسرعة نحو منزلي لكن تغلب جانب الفضول على جانب الخوف لديّ وقلتُ مواسياً لنفسي: إنه ذلك البستاني الذي يتحدثون عنه وها هو ذا يظهر لي دون عناء فهذه فرصتي لأسئله" تقدمتُ نحو الضوء بهدوء وبطء إلى أن بدء ظل الرجل بالتجلي أمامي بوضوح يبدو لي أصغر بكثير من كونه في الخامسة والثلاثين، يبلغ شعره منتصف رقبته شديد السواد لم يُهَنْدِم خصلاته فزاد هذا من مظهره الرجولي وسامتاً، أما لون بشرته فلم يكن شديد البياض بالإضافة إلى أنه طويل القامة نحيل إلى حد ما، لم أتمكن من رؤية ملامحه فقد قام بوضع قبعته على وجهه، إقتربتُ واختبأتُ خلف الأزهار ورحتُ أراقب بصمتٍ ما يفعله، شعرتُ بالملل فهو لم يقم بفعل شئ لمدةٍ طويله فقط كان يعدل جلسته بين الفينة والأخرى على كرسي خشبي مريح واضعاً قبعته على عينيه ودخان سجائره يتراقص أمامه واضعاً قدماً على أخرى يبدو

كالنائم لمن يراه، كدتُ أرحل فلم أتحلى بالشجاعة الكافية للوقوف أمامه والسؤال لذلك إستدرتُ وهممتُ بالرحيل.

: لا يجب على الفتيات التّجوال وحدهنّ ليلاً، صحيح؟

كان هذا ما قاله الرجل وهذا أيضاً ما جعلني أتيبس بلا حراك حيث أقف، أخذ نفساً من سيجارته ثم أردف.

: لما أتيتي؟

إزدتُ إرتعاباً حينها إلا أنّي قررتُ الكلام خوفاً من غضبه دون التحرك حتى، قلتْ .

:أسفة سيدي، كنتُ مارتاً من هنا فحسبتك نائماً فقررتُ إختيار طريق آخر.

: آمم .. وما الذي تبحثُ عنه فتاة في مثل عمرك هنا عند منتصف الليل؟

تيبس حلقي فعلمتُ أن الكذب لا ينفع معه فقلتُ بكل جرأه: أريد سؤالك عن جمال الحديقة رغم ما أسمعه من خدم القصر عن تكاسلك وإهمالك لها.

ثم توقفتُ قليلا لأستطرد بصوت هادئ : مهلاً! لم أسأل قبل كل ذلك، هل أنت السيد جواد البستاني سئ السمعة ها؟

وسط ذلك الهدوء بدء بالضحك بصوت عالٍ إستدرتُ ببطء لأتمكن من رؤيته، لم يتحرك قط حتى القبعة لا تزال على عينيه ثم تسائلتُ في جوفي وقد كنتُ أرتعد خوفاً" كيف تمكن من معرفة بأنّي فتاة؟ دون النظر حتى، رباه! من يكون هذا الرجل؟ " إستمر بالضحك حتى توقف بعد أن أبعد قبعتة وأعتدل في جلستة وأخذ يشعل سيجارة أخرى بعد أن رمى السابقة وداس عيها بحذاءه ثم قال بعد أَخْذِ نفسٍ طويل منها.

: أهنئك يا فتاة على جرأتك، سئ السمعة وأمامي؟ رائعة! كيف تمكنتِ من قولها.

تراجعتُ خطوتاً وأنا ألعن نفسي مراراً على قولها لم أنتبه حينما انزلقتْ من شفتي، قلتُ بصوت مرتعش خائف: المعذ..

إلا أنه قاطعني: لا داعي.

ثم صمتَ قليلا ليستطرد: بالإضافة إلى سؤالك الغبي الذي هو بغباء من يوظف بستانيين لحديقة كهذه، هل تكبدتِ عناء المجئ إلى هنا لتسألي هذا السؤال؟

قلتُ متعجبه: على رسلك بستانيين؟!

أجاب والسيجارة لا تزال في فمه: إنه الرجل العجوز، ألـم تريه في الأرجاء من قبل؟

: كلا لم أره.

: حسناً إذاً، إكتشفتُ بأن كل مقيم في هذا القصر أحمق، جواب سؤالك أمامك ذاك الرجل هو من يقوم بكل شئ ولا يترك لي ما أفعله لذلك أنا كثير النوم.

: وكيف تتشاركان الغرفة المخصصة للبستاني وهي صغيرة؟

: يستيقظ السابعة صباحاً فأنام أنا مكانه، ثم أستيقظ السابعة مساء فينام هو، وهذا هو الإتفاق.

قلتْ: مريب! كيف تتمكنان من النوم كل هذا الوقت؟

رفع كتفيه بقلة حيلة: كما تعلمين، لا يوجد الكثير لفعله في حياة البستاني، مهلاً لم تجيبي عن سؤالي لما يهمك الأمر؟

: لا شئ يذكر فأنا أعشق الحدائق وأهتم بأمرها لا غير.

ثم أكملتُ مبتسمة: حان دوري لسؤالك، كيف علمتَ بأنّي فتاة دون النظر حتى؟

إبتسم بدوره قائلاً: صوت حذائك كان مسموعاً حتى مع محاولتكِ لإخفائه، هذه هي عيوب أحذية النساء العالية فهي تتسبب في كشفهن عند محاولتهنّ التلصص.

شعرتُ بالخجل الشديد وقلتْ: أسفة حقاً سيدي، لم أقصد التلصص فقد كنتُ أود سؤالك عن ذا..

قاطعني: لا يهم لا يهم ، على أية حال لم أكن أقصدك بالجزء المتعلق بالتلصص.

صمتَ قليلاً ليردف: في الحقيقة تعجبني سيدي هذه ولكن نادني بجواد أفضل، يتوجب عليك الرحيل فالمكان ليس آمناً هنا" ثم عاد إلى إستلقائه.

من اللباقة تعريف نفسي أنا الأخرى إلا أني إمتنعتُ لسبب ما ثم قلتُ مع انحنائة بسيطة

: أشكرك، طابتْ ليلتك.

ورحلتُ متجهتاً إلى المنزل أفكر بما حصل للتو، وضعتُ المفتاح في باب المنزل ليصدر ذاك الصوت الإعتيادي عند فتح الأقفال وقبل أن أدفع الباب وأدخل لاحظتُ من الأسفل بأن هناك ضوء خافت مُشعَل بالداخل دفعتُ الباب بسرعة لأدخل وأجد أمي جالستاً وزين ممد أمامها وقد قامتْ بتغطيته جيداً، هرعتُ إليهما وقلتُ بخوف: أمي لما أنتي مستيقظة إلى الآن؟ وزين مـ...

قاطعتني: أششش..لقد نام للتو.

قلتُ هامستاً لألى أزعجه: مالذي حدث ؟

أجابتْ بهمس هي كذلك : سقطتْ على ذراعه إحدى الصناديق الثقيلة بينما كان يستريح تحتها وقد تورمتْ قليلا .

قلتُ بتعجب: تورمتْ قليلاً؟!

أجابتْ: أها ولما العجب.

: هل ذهب إلى الطبيب قبل عودته إلى هنا؟

: أجل، لقد سألته عن الأمر وقد قال لي بأنه ذهب فأخبره الطبيب بأن ذراعه بخير ويحتاج فقط لبعض الراحة.

أومأتُ برأسي متاظهرتاً بتصديق مجريات المسرحية التي أقنع بها زين أمي ثم أمسكتُ بيدها وقلتُ مبتسمتاً مازحه : هيا يا عزيزتي لترتاحي الآن فقد حان دوري في الحراسة.

: كلا يا إبنتي فأنتي متعبة من العمل ويجب عليكِ الإرتياح.

ومع بعض المحاولات تمكنتُ من إدخاها غرفتها واستلقائها وما إن إطمأننتُ بنومها حتى إتجهتُ إلى زين وبمجرد جلوسي قلتْ: حسناً كفاك لعب دور الخارق ذو الجسد الحديديّ وإدعائك النوم رغم تشنجات الألم البادية على محيّاك، لا أعلم حتى كيف تمكنتَ من إقناعها بهذا التمثيل السئ كما أنّ الشعور بالألم أمر طبيعي فلا داعي لكبته.

ما إن أكملتُ كلماتي حتى صرخ صرختَ ألم مكبوته وتأوهاتِ الأوجاع ، قلتُ بلهجة التوبيخ الصارمة: ما الذي منعك من إستشارة الطبيب؟ أهوج فيما كنتَ تفكر، هل ستقنع ذراعك وعقلك بعدم وجود الألم إن لم تظهره.

قال بصوت يقطعه الألم : ظننتُ أنه ..سيزول مع ..مرور الوقت..لكنه يزداد فتكاً.

وقفتُ قائله: حسناً، ما باليد حيلة سأذهب لإحضار الطبيب.

إنتفض زين في غضب: كلا ليس الآن فالوقتُ قد تأخر على خروجك، هذا خطأي وعلي تحمل عواقبه وحدي.

سِرتُ متجهتاً إلى الباب ضاربتاً بكلامه عرض الحائط ثم قلتُ قبل خروجي: لن أحتمل تألمي لألمك طيلةَ الليل.

ثم خرجتُ قاصدتاً منزل طبيب القرية المشهور رائف والذي كنتُ أرى زين بصحبته بين الفينة والأخرى رغم كبر سنه فعمره إثنان وستون عاماً وقد خجلتُ كثيراً لإيقاظه في مثل هذا الوقتِ المتأخر طلبتُ منه المجئ بعد أن شرحتُ له ما أصاب زين فوافق بكل لطف واستأذنني لإحظار الأدوات التي يحتاجها وأثناء سيرنا إلى منزلنا سألني الطبيب قائلاً:سمعتُ من أحدهم بأنك تعملين في قصر حازم، هل هذا صحيح؟

: أجل سيدي، أعمل هناك منذ بداية الشهر الماضي.

: هل العمل جيد هناك؟

قلتْ: بالطبع كل من هم في القصر ودودون جداً.

قال: حسناً إذاً، لا يجب الإطمإنان للبشرا لآخرين إلى هذا الحد ، فمهما أظهرتْ القطط لطافتها ستبقى سنوريات.

إرتبتُ من كلامه وراحتْ العديد من الأسئلة تتخابط في ذهني ثم قلتْ: سيدي ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟

نظر أمامه وعقد حاجبيه اللتان إبيضّتى من كثرة الشيب: أليس هذا هو منزلك؟

لم ألحظ وصولنا فقد كنتُ مشغولتاً بالتفكير في كلامه لذلك قلتُ متعجبة: أوه! صحيح هذا هو منزلنا لقد وصلنا بسرعة.

ولجنى المنزل وكان على حاله حين مغادرتي دخلنا إلى حيث ينام زين: هذا هو أخي الذي أخبرتكَ عنه سيدي.

لم ينم زين بعد، فقد تكفل الألم بإبعاد النعاس عن جفنيه وما إن أنهيتُ كلماتي حتى قال: أيها الطبيب لا تكترث لها، أنا بأفضل حال.

جلس الطبيب أمام فراش زين ولم يعر كلامه أي إهتمام وتمتم قائلا وهو يرفع الغطاء عن يده : حسناً إذاً، دعنا نرى ماذا لدينا هنا.

ذهبتُ أنا لأحضر فنجان القهوة للطبيب ولم يخرج من الغرفة لوقتٍ طويل، وفجأة علتْ صرخاتُ زين التي دوتْ في أرجاء المنزل، كانتْ تلك الصرخات تشعرك بمدى ألم صاحبها فتدب رعشة في جسدك لمجرد تخيله، ما إن رفعتُ ناظريّ حتى وجدتُ والدتي تتجه نحو الغرفة، هرعتُ إلى تهدئتها وإيصالها إلى الكرسي فقد كانتْ تترنح من مرضها، قلتْ: أمي لا تقلقي فقد ذهبتُ لإحضار الطبيب وهو الآن معه بالداخل.

قالتْ بفزع: طبيب!! هل حالته خطرة إلى هذا الحد؟

أجبتْ: كلا، كلا هو فقط .. يتألم .. قليلاً وحسب.

خرج الطبيب أخيراً وتسألنا عن ما حدث فأجاب وهو يرتب نفسه: لقد كانتْ ذراعه مكسورة وقد أتممتُ كل شئ وهو بخير الآن، لقد علمتُ بالأمر حالما وصفتيه لى في منزلي لذلك أحضرتُ كل ما يلزم، طابتْ ليلتكما.

وأتجه نحو الباب بصمتْ، بينما أندفعتْ أمي لتطمإن على زين إتجهتُ أنا إلى الطبيب: إنتظر سيدي أجرك .. لم تأخذ أجرك بعد.

قال وهو يفتح باب الخروج: كوني حذرة يا صغيرتي.

غادر دون أخذ المال فإتجهتُ إلى زين ولازلتُ أفكر بما حدث جلستُ بجانب أمي.

قال زين: أشكرك ردينة.

قلتْ: كلا، كلا فهذا واجبي، زين لا تتصرف برعونة المرة المقبلة.

إبتسم ثم قال إلى أمي: حسناً، إذهبي لترتاحي أمي، ستكون ردينة هنا إن إحتجتُ إلى شيء.

قلتُ مازحه: ومن قال هذا ؟

أصرتْ والدتي في بداية الأمر كعادتها إلا أنها إضطرتْ للذهاب إلى الفراش فقد شعرتْ بدوار لا ينبأ بحدوث شيء جيد، ما إن غادرتْ والدتي حتى قال زين وهو لم يحرك ساكناً.

: ستتركين العمل في ذاك القصر اللعين.

قلتُ بتعجب: ماذا؟! هل أنتَ مدرك لما تقول؟ وما الذي ذكرك بهذا الأمر؟.

أجاب: سمعتُ الكثير عن ذاك القصر وبالطبع لم يكن ما سمعته بالأمر جيد.

لازالتْ ملامح التعجب منطبعتاً على وجهي: على رسلك، بالتأكيد أخبرك الطبيب بأمر ما، لما يقول الجميع أشياء كهذه؟ ما به قصر السيد حازم يبدو قصراً طبيعي ولم يحدث لي شيء غريب هناك.

أجاب: ربما لا يبدو الأمر بهذه الخطورة الآن لكنه سيصبح لا محالة.

إتجهتُ نحو الباب وأنا أتثائب: حسناً، ربما أعلم بأن السنوريات خطيرة ولكن لازلتُ أحبها على أية حال.

أندفع زين: هوجاء نحن لا نتحدث عن منعك من التنزه أو ما شابه، ستودين بحياتك أيتها الغبية.

قلتْ: أشكرك زين كما أني أقدر خوفك هذا لكن لن أترك العمل هناك، على أية حال هل تريد طلب شيء؟

لم يجب، فقط أشاح بوجهه للناحية الآخرى فأطفأتُ الإنارة: سأكون على أهبة الإستعداد لتلقي الطلبات في أي وقت نادي بإسمي فقط إن إحتجتَ لأي مساعدة، تصبح على خير.

تمتم وهو مغمض العينين: هوجاء..

في صباح اليوم التالي سَرَتْ الأمور كما تسير عادتاً، بعد ذهابي إلى العمل وما إن رأيتُ مايا حتى شرعتُ أخبرها بما حدث البارحة مع البستاني جواد، كانتْ مندهشتاً مما تسمع فأول ما إبتدأتُ به حديثي كان: لم يكن بتاتاً كما قيل عنه.

كنتُ أحدثها وأنا ألحظ إتساع عينيها وإرتفاع حاجبيها أخيراً نطقتْ بصوتِ أشبه بالصراخ : تمزحين؟ هل كان بهذا الكم من النبل، يبدو بأنك أخطأتِ الرجل، وما يجب أن تفهميه هو جواد رجل خطير يجب الإبتعاد عنه.

أجبتها: شككتُ بهويته أنا الأخرى لكن عندما سألته قال لي بأنه جواد صراحتاً، ولم يبدو لي من الكاذبين.

إلتقطتْ مِئزَر الطبخ من الطاولة وباشرتْ بإرتدائه ثم قالتْ بعد شروذ قد طال: الحديقة .. هل سألته عنها؟

إتجهتُ نحو النافذة وما إن قمتُ بفتحها حتى إندفع نسيم الصباح العليل المختلط برائحة الثرى وداعب أنفي برقة كما ظهرتْ تلك الإطلالة التي بتُ أعشقها، أشجار فارعة الطول تلتقي نهاية بعضها وتتفرق أخرى، سماء صافية لا تزال ظلمة الليل تشوبها، عصافير قد إستيقظتْ على أفرع تلك الأشجار، وذلك الصوت الفاتن لجريان جداول المياه الضيقة المتوزعة بإنتظام على طول الحديقة، وأخيراً .. زهور الياسمين .. كانتْ تصطف كأفراد لفرقة موسيقية متناسقة تتمايل على أنغام اللحن المعزوف تستعد للغناء بسعادة مستقبلتاً صباح جديد تستطيع أن تتباهى فيه بجمالها، أخذتُ نفساً طويلاً ثم قلتْ : لما لم تُعْلِمِيني بوجود بستاني آخر للحديقة؟

أجابتْ رافعتاً كتفيها: ذلك لعدم وجود آخر.

قلتُ وأنا أمسك بالإبريق لأسقي الزهور في الآنية على النافذة.

: لكن هذا ما أجابني به البستاني جواد.

قالتْ مقطبتاً حاجبيها في تعجب: وماذا قال؟

أجبتْ: يتناوب هو برفقة رجل مسن على الإعتناء بالحديقة، لكنه لم يذكر لي إسمه.

إمتقع لونها فجأة تركتْ الصحن الذي كان بين كفيها والتَفتْ نحوي ببطء، ثم قالتْ بجدية لم أعهدها بها: هل أنتي متأكدة؟ .. رجل مسن في الحديقة؟

أجبتْ مأكدتاً لما قلته وقد إنتابني شعور مقلق تجاه الملامح التي تعلو وجهها: آهــا .. رجل مسن .. متأكدة.

غاصتْ ملامحها في بحر التفكير، وعقدتْ حاجبيها محاولتاً تذكر شئ ما بعمق، ثم نطقتْ بكلماتِ متقطعة كمن يتحدث إلى نفسه بصوت أقرب إلى التمتمة إلا أني تمكنتُ من

سماعه:رجل مسن! .. إن لم يخب ظني .. أعتقد بأنه البستاني السابق للعائلة .. والذي .. توفي منذ أحد عشر عاماً وذلك يعني..أوه كلا..

ملئني الخوف، الإرتياع، عدم التصديق، الفضول، كلها تصادمتْ في جوفي، قلتُ بعد محاولاتٍ فاشلة لتثبيط هذه النزعاتِ النفسية: ميتٌ إذاً..كيف ذلك؟ .. آه سأجن!!.

إمتقع لون مايا كما لو صدمتْ لتمكني من سماعها إندفعتْ تحاول تهدئتي بتوتر: إهدئي .. إهدئي سأشر..

فُتِحَ الباب بقوة لتظهر من خلفه تلك الإبتسامة البلهاء، الشعر الثائر يبدو كمن أُقْتُلِعَ من فراشه وأُحضِر رغماً عنه، تلك الإبتسامة كانتْ الدليل الوحيد على رضاه، وسط ذلك الهدوء الذي يقطعه صوت خطواته الرتيب إتجه مباشرتاً نحو الكرسي وأستمال جذعه على الطاولة تثائب ثم قال بصوت غير واضح لإلتصاق شفتيه بالطاولة "صبـــاح الخيــــر "ثم أردف " مايا .. والسمكة "

أطلنا الإجابة لذلك رفع ناظريه نحونا وهو يقول: لمـا لا تجيبـ..

تنهد بضجر بعد أن تبادلنا النظراتْ: آه .. دخول في وقت عصيب .. أتفهم، أنا حقاً أتفهم ذلك.

همّ بالخروج إلا أن مايا منعته قائلة: صهيب يستيقظ باكراً! إجلس لنتحدث لم يكن بالأمر الجلل على أية حال.

" فطيرة التفاح .. أخبزي لي فطيرة التفاح " قالها وهو يضرب الطاولة بكفيه كصغير يرجو من أمه تحضير فطيرته المفضلة منتظراً بنهم، في حين إستعدتْ مايا لطبخ شئ ما وبالتاكيد ستكون ما طلبه صهيبمنذ قليل هممتُ أنا بالخروج بعد الإعتذار بشكل لبق، إتجهتُ إلى الطابق العلوي

لأُساعد في أعمال التنظيف هناك، بينما قدماي تصعد الدرج الفخم المفترش بساطه المخملي، توقفتْ فقد خطرتْ ببالي فجأة تلك الغرفة .. غرفة الخضار، عمتْ فؤادي تلك الرغبة العارمة للتحدث لأشخاص جدد إستدرتُ وأتجهتُ مباشرتاً نحوها في فضول، وقفتُ أمام الباب وطرقته .. لا إجابة .. طرقتُ وطرقتُ .. لا إجابة، هل يفترض أن أُشبع فضولي وأتخلى عن إحترامي لخصوصيات الآخرين؟ أم العكس؟ لكن في تلك اللحظة كانتْ يدي قد إختارتْ بالفعل وها هي الآن تفتح الباب...

حسناً ما كان ذلك الشعور على أية حال؟ خوف؟ كلا.. فزع ؟ لم يكن كذلك .. هلع؟ لا.. أو ربما خليط منها كلها، تسمرتُ في مكاني محاولتاً إستيعاب ما تبصره عيناي، غرفة ببرود الثلج طلاء أبيض صاف بصفاء السماء في يوم صيفي دافئ يتمدد على جدرانها التي تشعرك حال النظر إليها بالفراغ الذي بداخلك، ستائر قرمزية بالية تُراقص الهواء في حزن تلك الأجواء وحدها تكفي لتكون نذير شؤم، شَخُصَ بصري فيما آراه فقد إكتظتْ تلك الغرفة بالنساء اللواتي كُبلتْ أيديهنّ بأغلال حديدية قد تمكن الصدأ منها، أقدامهنّ مثبتةُ بكتل ثقيلة يبدو بأنها إستقرتْ لأعوام في أماكنها وأكثر الأمور إرعاباً أثار التعذيب البادية على وجوههن وأيديهن، كَدماتُ ما إن يقع بصرك عليها حتى تُشعر بألم لا وجود له، بعض منهنّ يضعن ضمادات قد إمتلأت بالدماء لكن ما أشعرني بالهلع حقاً .. نظراتهن، كلا لم تكن مرعبة بل كنّ يتبسمن بينما أعينهنّ تلمع ببريق الدموع المتراصة، يُردّن الترحيب لكنهنّ يخفن من أمر ما، يردّن الإستنجاد لكنهنّ لا يعلمن هل أنا عدو أم صديق، لقد كنّ خاوياتِ دون مشاعر ماتتْ أرواحنّ بينما تنبض قلوبهنّ يأسَ من غياهب الظلمة التي أحاطتْ بهنّ أما الأمر الذي يثير الإشمئزاز حقاً هو حقيقة كونهنّ من يقطعن الخضار فقد كانتْ سلال الخضار تملئ المكان إلا أنهن توقفن حال دخولي ليتأكدنّ من هوية من دخل، عجزتْ قدماي عن الحركة..

" عفواً يا آنسة ! "

إنطلق الصوت الرجولي من خلفي مباشرتاً وقد ألفته من قبل، إلا أني لم أتأكد بعد، لكن حال سماعي للكلمات مرة أخرى تحرك جسدي مبتعدتاً عن الطريق كرد فعل غريزي للأمر فور إلتقاء أعيننا قال: أوه .. الفتاة الفضولية!، لم يلبث حتى أردف: تبكين؟! .. رباه ! من أتى بطفلة مثلك إلى هذا الجحيم؟

ثم أكمل طريقه إلى داخل الغرفة مغلقاً الباب خلفه، شرعتُ بمسح دموعي التي لم ألحظ نزولها قط بِكُم ثوب الخدم الأسود ثم أندفعتُ نحو باب الغرفة مجدداً لأسئل أستاذ البرود عما يدور حولي.

ما إن فتحتُ الباب حتى .... حسناً ...لا أذكر سوى صوت إرتطامي بالأرض ..

صحوتُ على سرير أدركتُ فوراً أنه لإحدى الغرف الإحتياطية لمبيتِ الخدم في الطابق الأرضي للقصر والتي كانتْ خاليتاً من قطع الأثاث سوى من طاولة قد نهش الزمن من قوتها الكثير حتى إني أشك في تحملها لكأس من الماء، أعتدلتُ في جلستي وأنا شاردة الذهن وحال تذكري لتلك اللحظة التي عدتُ فيها إلى الغرفة إنكمش جسدي وأرتعد، لقد كانتْ فارغة إختفى كل من فيها في تلك اللحظة، أمّا هو فلا يزال هناك متخذ من إحدى الطاولات الكبيرة المصطفة داخل الغرفة كرسي له يقضم من إحدى سلال الخضار والفواكه المكدسة تفاحة ذات لون كناريّ مشع كقرص الشمس، ما إن أدركتُ حقيقة الأمر حتى سقطتُ مغمى علي.

تلاشتِ التخيلاتُ وعدتُ للواقع وقد إنفتح الباب لأتمكن من رؤية إبتسامتها المُطَمئِنة، وما إن دخلتْ حتى إندفعتْ نحوي تحتضنني قائلتاً في خوف: لا تقلقيني مرة أخرى، كدتُ أموت فزعاً.

همتُ بسؤالها " من أخبركِ بشأني؟ " إلا أنها لم تنتظر السؤال حتى فأردفتْ: دخل البستاني جواد إلى المطبخ وأعلمني بأن الفتاة المستجدة هنا قد أغمي عليها وبأني سأجدكِ في إحدى الغرف الإحتياطية لمبيتِ الخدم، فهرعتُ نحوكِ بسرعة ..آخ.. لقد كان ذلك مدمراً للأعصاب حقاً.

ثم إستطردتْ قائلة بوجه يملؤه الخوف والتساؤل: لما أغمي عليك؟ هل تشعرين بتوعك من نوع ما؟ أتشعرين بدوار مؤخراً؟ أجيبي..

قلتُ وأنا أبتسم لإندفاعها وقلقها المفرط: حسبك .. حسبك، لا داعي لكل هذا الهلع، ربما شعرتُ حينها بألم ما ولكنه إختفى بأية حال، لذلك لا داعي للقلق.

أمسكتْ معصمي بلطف وقالتْ بحماس الأطفال ذاك : هيا بنا لنخرج إلى الحديقة إذاً فربما يُنسيك ذلك ما تفكرين به فهذا غالباً ما ينجح معي.

إقشعر جسدي لذكرها الحديقة فقد بِتُ أخافُ من التجول بحرية في الأرجاء، لاحظتْ مايا ذلك فقالتْ: هل حدث أمر ما؟

إصطنعتُ إبتساماً بالكاد إنحنى بها فمي وقلتْ: كلا .. لا شئ هيا بنا.

ما إن خرجنا إلى الحديقة حتى أدركتُ بأن الظهيرة قد إنقضتْ فتذكرتُ الغداء لذلك أندفعتُ قائلة: وقت إعداد الغذاء لقد تأخرنا.

أوقفتني: لقد أعددته وأنتهى الأمر، حتى أن سيدي حازم قد تناول التحلية.

قلتُ بتعجب: يا إلهي! أغبتُ عن الوعي كل تلك المدة؟ " أردفتُ بعد إنحنائة إعتذار بسيطه " أنا أسفة.

قالتْ وهي تكمل طريقها نحو البساتين: لم يكن ذلك الأمر بيد أحد، لا داعي للإعتذار.

جلسنا في المكان الذي ألفنا الجلوس فيه بالقرب من الياسمين، أخذنا في التحدث عن كثير من الأمور ولم تنفك مايا عن عادتها التي أحبها وهي سرد ما تقرأه على مسامعي، مايا .. تلك الفتاة..كم أنا سعيدة وفخورة بأن صداقتنا قد تحوّلتْ إلى أخوة بعد فترة وجيزة.. أشعر بدفء الأختِ الذي لم أجربه من قبل ينبعث من عينيها ليطمإنني فجلوسها بجانبي وحده يشعرني بالإرتياح، حانتْ مني إلتفاتتُ لمحتُ فيها شخصاً ما يتجه نحونا أعدتُ النظر فإذا به أستاذ البرود ينتصب على بعد أمتار قليلة منا يرمقنا بنظرته الخاوية التى كانتْ تنادي بصمتْ " عفواً .. هل لي بدقيقة؟ " إستدارتْ مايا إلى حيث أنظر وما إن رأته حتى إرتسمتْ ملامح الخبث على محياها وهي ترمقني بنظرات كمن يقول " لما لم تخبريني؟ " قلتُ محاولتاً إغفال نفسي عن نظراتها الخبيثة : هيه! ..ما بال هذه الملامح؟

وقفتْ هي بدورها وأخذتْ شهيقاً طويلاً كمن يحاول تهدئتَ نفسه: كم مرة حذرتكِ من الإقتراب منه؟ تجاهلي هذا الرجل إنه لا يصلح لك.

صدمتُ لما نطقتْ به فوقفتُ مواجهتاً لها وقلتُ محاولتاً كبتَ غضبي: مالذي تهذين به؟

أشارتْ بإبهامها نحوه فأملتُ رأسي لأتمكن من رؤيته حسناً لا شئ غير أعتيا..أوه..لقد كان يحمل باقتاً صغيرة من زهور الياسمين النضرة، وضعتْ مايا كفها على كتفي: حسناً ذلك الأمر يعود لك على أية حال... بالتوفيق، وأتجهتْ إلى داخل القصر.

إتجهتُ نحوه ثم قلتُ بصوت كاد أن يختفي: مساء الخير .. سيدي.

قال بصوته الهادئ: تعلمين أسمي لذلك نادني به.

قلتُ بإنفعال شديد: أسفة.

تمتم بضجر: ذاك المسن اللعين!!

ثم إمتدتْ ذراعه حاملتاً باقة الياسمين: هذه لك.

إحمر وجهي خجلاً، كما شعرتُ بسخونة أذني الحارقة التي لم تلبث أن تحولتْ إلى برودة قارسة عندما أكمل: أنها من الرجل المسن الذي حدثتك عنه تلك الليلة لا أعلم لما لم يعطها لك بنفسه لكنه رجاني كثيراً كي أفعلها عنه.

شعرتُ بخيبة الأمل والإنهيار الذي تتمنى عند الشعور به أن تنشق الأرض وتبلعك خصيصاً أن خجلي عندما قال" هذه لك" كان واضحاً له بشدة، طبطبتُ على خاطري المكسور وأمسكتُ بيديّ التي بدأتْ أصابعها بالإرتعاش تلك الباقة الفخمة التي أحببتها بحق، أخيراً تمكنتُ من رفع بصري نحوه مباشرتاً وقلتْ: أين هو؟ أود رؤيته.

ما إن أكملت جملتي حتى ناولني ظرفاً لرسالة: هذه منه أرفقها بالباقة وقد أشاد بأهمية قرائتها إن رغبتِ برؤيته، في الحقيقة ذلك المسن يهتم لأمرك لسبب ما.

ثم أردف: حسناً إذاً .. إلى اللقاء.

قالها ثم إختفى بين البساتين والأشجار الكثيفة أما أنا فلم أبرح مكاني وشرعتُ بفض الظرف وقراءتِ ما فيه، سُطِّرَتْ على أوراق مصفرّة بالية لمرور الزمن السحيق على إستعمالها كلماتٌ كتبتْ بخط يد مرتعشة بحبر أسود إلا أني لا أنكر جمال الخط بدأتْ عيناي بالتجوال بين تلك الأحرف التي تقول.

مرحباً يا آنسة ...

تحبين .. أقصد تعشقين الياسمين صحيح؟..

قد لا تصدقين ولكن أتمكن وبكل وضوح من رؤية بياضها يشعّ داخلك، حال رؤيتك لها لا تفكرين بشئ سواها .. الياسمين .. كم هي رائعة، لا أراك فتاة بل أراك ياسمينة يافعة

جوهرك ذو بياض ناصع .. ست وأربعون يوماً مذ أتيتِ أداوم فيها على تقليم الأزهار وتهذيبها حيث تهوين الجلوس دائماً وأكل الحلوى لكنك لم تلحظي وجودي حتى .. كنتُ دائماً هناك أراقبك وتراقبيني كما كنتُ أحسب .. آسَفُ على أعوام إنقضتْ من عمري لم أكن فيها بجانبك .. لم أجدك فيها .. أبحث عن نقائك فلم أجد سوى القذارة .. والآن وبعد إنتهاء أجلى لا تزال روحي متعلقة بتلك الآمآل الباهتة، في الحقيقة رغبتُ وبشدة في قولك "أود رؤيته" فقد نسيتُ ما الذي تعنيه تلك الأحرف، هل حقاً لازلتِ ترغبين بذلك؟

حسناً كم أنا سعيد بذلك يا آنسة كما أشكر تواضعك، من فضلك أغلقي الظرف ومن ثمَ ما عليك سوى النظر حيث تحبين الجلوس .. أجل هناك .. بجانب الياسمين.....

***

توقفتْ الكلمات عند هذا الحد، أغلقتُ الظرف وكنتُ أبتسم لم أعلم أهي إبتسامة لسعادتي بإطراء من رجل مسن، أم هي إبتسامتٌ للإستخفاف بتلك الأكاذيب المحشوة في الرسالة، أم هي تأكيد لجنوني الذي بِتُ على شفى حفرة منه، لم أؤمن ولو للحظة في إمكانية رؤيته إلا أن شعوراً ما دفعني للإستدارة ببطء والتحقق من الأمر... مكاني المفضل للجلوس تحت شجرة الصنوبر الضخمة .. وبجانب الجدول الممتلئ بزهور الياسمين .. شعرتُ بقشعرية إنتفض بها جسدي ربما من الرياح الباردة التي صفعتْ أذناي بقوة أو من هول ما أبصرتْ عيناي الشاخصة في ذلك المكان، لن أحاول وصف الكثير إتجهتُ نحوه بخطواتٍ ثقيلة تتردد في جوفي الكلمات التي تمتمتْ بها شفتى مايا "الذي توفي من أحد عشر عاماً مضتْ" توقفتُ ولم أنبس ببنت شفة كل ما فعلته مراقبت يديه المتجعدة الخشنة وهي تقطف الأعشاب الضارة وتضعها في السلة، أخيراً تمكن من كسر حاجز الصمت اللعين ذاك

والذي خشيتُ أنا كسره كي لا أجزم بجنوني قائلاً بعد أن أخرج تنهيدة مسنة: آه .. يال سعادتي أخيراً فَعَلتُهَا.

إنتصب أمامي ثم انحنى كخادم ينحني لملكة مبجلة وقال بصوت فيه بُحَاحُ وقور: أنا بستاني القصر الأبدي المسن عاشق الياسمين ليا الشرف بمقابلتكِ سيدتي .

لم أبدي أي نوع من ردود الأفعال حتى بادر مجدداً المسن عاشق الياسمين كما ادعى قائلاً

: سيدتي هل لك أن تـ..

قاطعه صوت صراخ مايا منادياً بإسمي راكضتاً نحونا ثم قالتْ بعد وقوفها أمامي وهي تلهث: بلهـــــاء! .. لما .. تقفين ..وحدك؟

وحدك؟!

إرتعدتْ فرائصي لما سمعتها " وحدك؟!" قلتها بتعجب وعدم تصديق بينما نطق فؤادي بجزع " لقد إكتفيتْ الرحمة!" أجابتْ بكل براءت الطفولة التي تحملها تفاصيل وجهها :نعم، لما لم تلحقي بي بعد إنتهائك من الحديث إلى ذاك الأبله جواد؟ على كلٍ تعالي معي سأريك شئ ما.

أنهتْ كلامها وهي تجرني من معصمي كعادتها نحو الداخل إستدرتُ إلى حيث يقف المسن لم يكن هناك بل لم يكن في أي مكان إختفى هو الآخر في لمح البصر تبعتها وأنا أردد في جوفي الملتهب بجحيم الخوف " تباً ما الذي يحصل لي؟ لقد جننت! .. جننت! "

حسناً .. هل أجزم بالأمر وأخبر مايا بحقيقته؟ أم أصبر قليلا لعلي أصحو على صوت أمي لأجد نفسي في كابوس ثم أهرع إليها لأخبرها ما رأيتْ، هل هذا سيحدث حقاً أم أن كل ما رأيته حقيقة؟ النساء وإختفائهن فجأة ثم هذا البستاني وحديثي إلى جواد هل كان حقيقياً في

الأصل؟ بِتُ أجهل كل شئ حولي ولكن أجزمتُ بضرورة كبتِ الأمر عن مايا لسبب أجهله.

: ردينة! .. هيه ردينة!

أفقتُ من شروذي على صوتِ مايا وهي ترمقني بقلق قائلة: ما بك؟ أنا متأكدة من حدوث أمر ما معك ولكن إن لم ترغبي بقوله الآن فسأتركك " إبتسمتْ " ولكن سأصر لاحقاً.
أشارتْ بيدها لي كي أدخل لم ألحظ حتى وصولنا إلى غرفة الطبخ، دخلتُ لأجد قِطتاً بيضاء اللون تبدو كوسادة من الوبر تلهو في إحدى الزاويا بهدوء، كل ما أستطيع سماعه أصوات العصافير من الخارج وصرير الرياح التي تداعب الأشجار وأخيراً صوت الجرس الذي يتدلى من رقبة القطة، إخترقتْ مايا ذاك النسق بصوتها وهي تتجه نحو القطة تحملها وتداعبها قائلة: أليستْ رائعة؟ أنظري إلى وبرها كم هو ناعم.

تسائلتُ وأنا أخلل وبرها بأصابعي: ومن أين حصلتي عليها؟

أجابتْ: أتى صهيب وطلب مني رعايتها لبعض الوقت، إنها قطته المفضلة ألم تلحظي وجودها من قبل؟ إنها دائمة التجوال هنا وهناك.

قلتُ لنفسي بجزع " كلا أستختفي بعد لحظات هي الآخرى؟ " ثم إبتسمتُ لمايا بعد تذكري لرؤيتها عدة مرّات بين الفينة والأخرى: آها! .. تذكرتْ صحيح إلا أني لم أسألك عنها لقلة حبي للقطط.

قالتْ مايا بوجه طفوليّ ماطتاً شفتيها بغضب مزيف: ألا تحبينها؟ .. القطط أجمل ما في الحياة.

من المألوف عن القطط حُبها لمن يداعب رأسها فسمحتُ لأناملي أن تمسح عليه فإذا بها تهدأ هدوء مخيف ولم ألحظ حدوث شئ إلى أن وجدتُ نفسي أصيح متألمة: إصبعي .. إصبعي .. لقد عضتْ إصبعي.

تمكنتْ مايا بطريقة ما من إبعادها عني لأجد أثر أسنانها ينزف القليل من الدم لاتزال القطةُ على ثورانها فحمَلتها مايا إلى صندوقها وأحكمتْ عليها الإغلاق ثم أتتْ بما يلزم لتضميد جرحي وجلستْ بجانبي: أسفة لما حصل إعتدتُ اللعب معها ولم أجدها يوماً بهذه الشراسة، لا أعلم ما أصابها.

كانتْ القطة تصدر أصواتاً غريبة من القفص وتحاول الخروج تعجبتُ من هيجانها المبالغ فيه لكن ما أدركته هو أن هذه القطة ليستْ بالعادية، بعد شرودٍ طويل نظرتُ إلى مايا فلاحظتُ ملامح الخبث تلك تعلو محياها مجدداً، قالتْ وهي تعتدل في جلستها بجانبي: ما الذي دار بينكما من أحاديث هـآ؟ .. أخبريـني عزيزتي.

إبتسمتُ وقلتْ: لا شئ.

إنتفضتْ قائلة: وماذا عن تلك الزهور إذاً؟

أجبتُ بحرقة: إنها من المسن الذي تحدثَ عنه المرة الماضية.

إمتقع وجهها إلا أنه عاد إلى طبيعته قبل تمكني من التساؤل حتى، إنتصبتْ أمامي وقالتْ : تلك خدعة لا غير يا عزيزتي بالتأكيد سيخجل من قول الحـ..

قاطعتها: لقد كان المسن بجانبي وتمكنتُ من رؤيته بكل وضوح بينما رددتي أنتي بثقة أني كنتُ وحيدة، أياً كان ما يحصل لي الآن فهو نذير شؤم لما سيحصل لاحقاً.

ثم قالتْ محاولتاً بجهد كبير نزع تلك الفكرة: أنتي تتوهمين يا ردينة لقد كنتِ وحيدة أنا متأكدة بأن رأسك يؤلمك لا غير أنسي كل ما رأيته.

ساد الصمت للحظات كنتُ جاثيتاً فيها على أرضية غرفة الطبخ الخشبية أتأمل تفاصيلها إلى أن علا صوت بكاء مايا وما إن رفعتُ ناظريّ نحوها حتى تمكنتُ من رؤية وجهها الباكي الذي لم أره طيلتَ بقائي معها إحمرتْ عيناها وأنفها وسط بياض وجهها الثلجي تبدو تماماً كطفلة بريئة تحاول كبتَ دموعها أمام والدتها، نطقتْ شفتاها أخيراً بصوت أشبه بالصراخ

: حذرتك .. ألـم أحذرك؟ ..ألـم أحذرك من الإقتراب منه؟ .. كنتُ سأمنعك لكن خشيتُ أن أكون أنانية بفعلي ذلك.

إرتشفتْ دموعها ثم أكملتْ: لا تحدثيه مجدداً .. لا تحدثي أحداً هنا بإستثنائي.. تجاهلي كل ما يحصل.

إحتضنتها ولم أشعر بدموعي التي بدأتْ بالإنسياب ثم قلتْ: حسناً لا تقلقي لن أُحَدث أحداً بعد الآن في هذا القصر.

: عديني..

: أعدك.

أكتمل اليوم كالعادة أعددنا العشاء وتحدثنا معاً في مواضيع شتى ننتظر سماع دقات ساعة الحائط التي لم تلبث حتى عمتْ أرجاء القصر إتجهنا إلى باب الخدم الخلفي وبينما كنتُ أودع مايا لاحظتُ من خلفها إنتصاب فتاة في نهاية الردهة المظلمة تلوح لي، إتسعتْ عيناي فزعاً وأنا أرى الأصفاد تتدلى من معصميها لم تلتف مايا كما إعتقدتْ بل ضغطتْ على يديّ وهي تقول: إنتبهي لنفسك.

أومأتُ برأسي ثم إتجهتُ راكضتاً إلى البوابة الرئيسية لم أشعر يوماً بتلك الرغبة الشديدة في مغادرة مكان ما لكن ما إن إقتربتُ من البوابة حتى لاح لي في الظلمة ظل شخص ما يقف عندها، تسمرتُ مكاني وانا أحاول جاهدتاً إيجاد مخرج من هذه الورطة لكن لم أجد إجابة من ساقيّ بينما يقترب صاحب الظل مني، في تلك اللحظات دائماً ما تتخلى عنك أقدامك وبكل بساطة إنتظرتُ حتى إقترب مني كنتُ أعد الخطوات بفزع وقد كانتْ عشراً ليسقط على وجهه ضوء إحدى الشعلات القريبة التي تتوزع في مناطق قليلة في الحديقة إنه أستاذ البرود اللعين مجدداً، إمتد ظله الطويل على الحجر القرميديّ المصطف بعناية ليمثل ممراً يقودك إلى البوابة تمتد على أطرافه مختلف أنواع الزهور، قال بصوته الهادئ الذي إعتدته

: الآنسة الفضولية .. لقد كنتُ في إنتظارك ... بالمناسبة ما هو إسمك؟

لم أجب لذلك إستطرد: توقعتُ ذلك، لما وعدتها بشئ كهذا؟

رمقته بنظرات التساؤل الخوف والصدمة معاً، أجاب وهو يلوح بكفيه في نفي: كلا.. كلا لم أكن أتنصتْ لا تنظري إليّ هكذا، كانتْ تلك ندى الشقية وقد أخبرتني بكل ما دار بينكما .. تتسائلين من هي ندى صحيح؟ حسناً إنها إحدى الفتيات اللواتي كنّ في تلك الغرفة والتي أغمي عليك أمامها صباحاً، أرادتْ التحدثَ معك وبشدة فأنتي غريبة عن المكان ولابد أنها لم ترك من قبل في الأرجاء لذلك ظلتْ تلاحقك، أسف بشأن ذلك لكن...

ظهرتْ ملامح الجدية والصرامة عليه وقد بدتْ مرعبتاً لي حينها في تلك الظلمة ثم قال

: تعلمين لما أخبرك بأشياء كهذه .. صحيح؟

لم تلبث حتى عادة إبتسامته الهادئة لتعتلي شفتيه: كم أتمنى أن تري الإرتياع البادي على محياك.

أراح كفه على رأسي كمن يربتُ على رأس طفل صغير ثم أردف: صغيرتي هذا المكان ليس للأطفال أمثالك، لا تعودي غداً إن أردتِ إكمال حياتك كما أنتي.

ثم رحل تاركاً أذاني تستمع لصوت خطواته الذي يتلاشى تدريجياً، قلتُ لنفسي ولازال وجهه منطبعاً في عينيّ إنها المرة الأولى لي التي أدقق فيها بملامحه فلم أره من قبل إلا وكانتْ على بصري غِشاوة من الفزع غير واعية لما حولي، لم يكن شديد البياض كما أسلفتْ له حاجبان عريضان طويلان إلى حد ما، أدهم العينين واسع الثغر يبدو مُهِيباً وقوراً خاوي المشاعر حال رؤيته إلا أنه يصبح لطيفاً جذّاباً حالما يبتسم تتناثر خصلاتُ من شعره الأسود القاتم الطويل على جبينه الواسع، بعد أن جمعتُ شتات نفسي وطردتُ أحلام اليقظة الوردية التي راودتني حينها أكملتُ طريقي إلى المنزل والخوف يمزق جسدي، حمدتُ الله على وصولي سالمتاً إليه وما إن دخلتْ حتى وجدتُ زين ممدداً على الأريكة يتأمل الغرفة في ضجر يدندن إحدى الألحان التي أمقتها وما إن رأني حتى قال

: مرحباً ردينة! .. لقد تأخرتِ اليوم.

أجبتُ وأنا أخلع حذائي: لديّ بعض الأعمال الإضافية، لما لم تنم بعد؟

أصدر صوتاً ضَجِراً بشفتيه ثم قال: آبف...لقد مللته فلم يعد لي سواه .. كما تعلمين فقد أصبحتُ كالكلب الأبكم الآن بلا أعمل.

إبتسمتُ في سخرية: على رسلك لم يمضي سوى يوم على إصابتك لا يزال هناك الكثير في إنتظارك.

غزتِ الجديّة وجهه فجأة وقد كانتْ رغبته في قول أمر ما واضحة إلا أن هناك ما يدفعه للسكوتْ فانفجرتْ شفتاه أخيراً بعد عناء التردد ليقول: ردينة ... هل حقاً تنوين إكمال العمل هناك؟

أجبتُ وأنا أدخل المطبخ محاولتاً الإبتعاد عنه قدر الإمكان: بالتأكيد أود إكمال عملي وبشدة.

في الحقيقة كنتُ أجهل الإجابة الفعلية لهذا السؤال، هل أريد الإستمرار حقا؟ السبب الأكبر في تجاهلي للأمور المرعبة وإعراضي عن التفكير في الرفض .. مايا فكيف لي بإمضاء يوم جيد دون رؤية إبتسامتها، إرتشفتُ كوباً من الماء وأنا ألمح زين يتكئ على حافة الباب قائلاً مقاطع تفكيري: ألم تصلك أخبار البلاد؟

لقد تذكرت!!

لم أخبركم بأمر دولتنا، آسَف على ذلك فأنا كثيرة النسيان كما أن رغبتي بطرح ذاك الأمر ليستْ بالشديدة، بلدنا غني بشتى المصادر الطبيعية كما أن موقعه ممتاز وهذا سبب لكون بلدنا إحدى الدول الناهضة في الإقليم، دولة شعرتْ بالعظمة فلم تراقب أفعالها إنقسم جزء يعادل ثلث أرضنا من الدولة المجاورة لأسباب سياسية لم أحط بها علماً مسبقاً وذلك كان منذ ثمانين عاماً حسب إعتقادي ومنذ ذاك الحين وغريزة الطمع لدى دولتي تلتهب فأعلنتْ رسمياً محاولة إستعمار تلك الأرض الشاسعة بعد خمس وأربعين عاماً من إنفصالها، ومنذ أحدى عشر عاماً فقط أعلنتْ دولتنا رسمياً انتهاء الغزو بالنصر وضم ذاك الجزء إليها وقد كان عمري حينها ست سنوات دامتْ محاولتُ الإستعمار تلك ما يقارب الأربع وعشرين عاماً إشتدتْ بها الأوضاع على عائلتي فترة عيشهم بها، فقط لكون قريتنا على الحدود مع تلك المنطقة المُسْتَعْمَرَة وقد كانتْ بعض القرى المجاورة تعيستَ الحظ كفاية ليتم تحويلها عن بِكرة أبيها إلى مناطق عسكرية من قِبل الدولة، تحتم علينا عيش المأساة

لكون قرانى حدودية بينما بقية البلد يحيى في سلام تام وقد كانتْ أسوأ طفولة يمكن لشخص أن يحظى بها وما زاد الطين بِلّه كون والدي ضمن الجنود المدربين للقتال في تلك الحرب النجسة التي دفنتْ رؤس الشرفاء منا تحت التراب، لا أنوي حقاً تذكر التفاصيل المريعة فهي ذكريات لا أرغب بمعاودتِ إحيائها بعد أن تمكنتُ من قتلها، ما أشعرني حقاً بالإستياء حينها هو كمّ التعذيب والإنكسار الذي تعرض له أهل تلك المنطقة التي ما تزال ألآمهم مشتعلة حتى الآن فلا يعني سكوتهم أن جراحهم قد إندملتْ على كلٍ، لم يسبق لي الحديث عن الأمر مع مايا لذلك أجبتْ

: كلا لم يصلني شئ.

قال بإندهاش: أوه عجيب! .. حسناً سأخبرك، أعاد أهل ذاك الجزء المحتل طلبهم من حكومتنا والذي طالبو به منذ إنتهاء الحرب ألا وهو تسليم جثامين المجزرتين الشهيرتين اللتان حدثتى داخل حدودنا ومن طرفنا.

قلتُ بغضب من فعلة دولتنا الشنيعة واضعتاً الكأس بقوة على الطولة: وهل إرتكبتْ دولتنا مجازر بحقهم على أرضنا؟ الرحمة! يال الفضاعة! لكن أيّ جثامين يعنون؟ ألم يحدث ذلك منذ سنين عدة.

أجاب: أي قبورهم .. سينبشونها ويأخذون ما تبقى لدفنه في مقابر خاصة هناك أعدت خصيصاً لهم لترتاح أرواحهم وترقد بسلام في أرض الوطن كما في معتقداتهم.

قلتُ في تعجب: كيف ترضى أنفسهم فعل ذلك؟ ينبشون قبور محبيهم ليحملو ما تبقى بجانبهم يعتبر ذلك جريمة بحد ذاته إن كانو يأبهون لراحة أرواحهم فهي قد إرتاحتْ فعلاً وقد عادتْ إلى ربها أما أجسادهم فأكرم لها أن تبقى حيثُ دُفِنتْ.

قال زين بجدية: أياً يكن يجب على دولتنا إحترام معتقداتهم فهذا ما تُحتمه الأخلاق الدولية يكفي ما ناله السكان مسبقاً.

قلتُ شاعرتاً بالأسى: صحيح يجب تنفيذ كل طلباتهم.

أطلنا الحديث في الأمر متبادلين وجهات النظر وكالعادة إنتهى حوارنا مقتنعتاً برأيه، قررتُ حينها الحديث لزين عن مايا وجواد وصهيب وكل من أعرفهم في القصر ويومياتي معهم فلم أجد منه إلا إبتسامة باهته وبعد مضيّ الوقت وشعوري بالنعاس قلتُ متجهتاً نحو فراشي بينما يغادر هو الأخر لينام: عمتَ مساء.

تمددتُ على فراشي عازمتاً النوم لكن هيهات، بات عقلي يجوب في عالم التساؤل أطرح العديد من الأسئلة لكن لا أجد أجوبتاً شافية، فقط محض تخيلات أحاول تصديقها ململمتاً بها شتات نفسي، أخيراً قررتُ ترديد اللحن الذي دائماً ما تردده مايا وتحبه ولسبب ما حينما نطقتْ به شفتاي وسط الظلمة وجسدي ممد على الفراش شعرتُ بأن اللحن مألوف وقد سمعته من قبل لكن لم أتذكر " أيتها الفراشة.. رفرفي بعيداً ..بعيداً جداً عن ياسمينتي.. وإلا فسؤقع جناحيك الفاتنتين ...وأنا أراقب صامته.. "

أخيراً نمت...

: عزيزتي ردينة إستيقظي ...ردينه!..

إستمر النداء بينما كنتُ أردد مغمضة الجفنين " مهلا! مهلا أعلم صاحب الصوت .. إنه ..إنه .... لـمـــايــــا ؟!" فتحتُ جفنيّ ببطء أوه! .. لا يوجد فارق الظلمة معتمة هل أطفأ أحد ما الأضواء؟ الظلمة منتشرة في كل مكان، قلت بإستنجاد بصوت ملؤه الإرتياع ولم اتحرك شبراً: مايا لا أرى شئ هلا أشعلتي الضوء؟

آمم!.. ما هذه الرائحة التي تخترق لا بل تحرق أنفي؟ تباً! ..لا تُحتَمل إنها أشبه برائحة حيوان نافق، هممتُ برفع ذراعي لحجب أنفي عن الرائحة إلا أني لم أستطع حاولتُ مراراً وتكراراً لكن لا فائدة! ذراعي تأبى التحرك إنها مقيدة بإحكام إلى الأرض، تنبش أذناي فجأة أصوات تنفس عالية لأشخاص عن يميني ويساري رحتُ أتسائل هل متُ وأنا الآن أُحاسب؟ أم هل خُطِفتُ وأنا الآن أعذب؟وسط تسائلي الدائم رحتُ أصرخ بفزع " مـــايــا .. مايا .. أين أنتي؟ .. مـــايـــــا!.." أُضيئت الغرفة فجأة وأول ما إرتمى ناظري عليه السقف إنه أبيض مريح يسقط عليه بخفة اللون الأحمر لضوء الشعلة، شعرتُ بتلك الأنفاس اللاهثة تعلو مجدداً وبحركة لا شعورية إلتفتُ إلى يمناي..... عينان بارزتان بروز الجحيم محمرتان كلهبه كانتْ تبادلني بِهما نظراتِ الفزع ينتثر على وجهها المتسخ بضع قطرات من الدماء ترتمي خصلات من شعرها لتخبئ جزء من وجهها .. مَن هذه؟ ... كل ما كنت متأكدتاً بشأنه أنها خائفة حد الموت ربما خوفها أعظم من خوفي حتى، كانتْ قريبة مني كفاية لأستمع لهمساتِ شفتيها المزرقة المتهالكة ألماً تردد" هـ.. هـذا...مـؤ.. مؤلم" إقشعر جسدي لسماع تلك الكلمات إنتابني فزع أعجز عن وصفه بمجرد أحرف لا بل الصراخ لم أتمكن من إخراجه حينها، ووسط كل تلك الإنفعالات كنتُ فقط أرغب بالتأكد من أنها بخير، رؤية وجهها المضيء وسط ما يحيط بي من ظلام وعندما جال بخاطري أنها النهاية إزددتُ رغبة في رؤيتها فكم أتمنى أن أسدل جفني ويكون أخر ما آراه محياها حتى يخلّد إلى الأبد في داخلي، إنسابتْ الدموع من عيني وأخذ قلبي يردد إسمها بصمت " مـايـا" فجأة علتْ صرختَ إمرأة كادتْ أن تصم أذناي قادمة من تحت قدمي المكبلتين حاولتُ رفع رأسي إلا أني أقسم بأن جزع الخوف قد شل حركتي، إستمر صراخ الألم ذاك مدتاً قصيرة ثم صمتَ صمتاً علمتُ بأن صاحبته لم تعد معنا على هذه الأرض، ثم عاد ذلك

الهدوء المخيف الذي أخذ صوت خطواتٍ رتيب بتقطيعه فلاحظتُ بأن الصوت توقف مهلاً! أحدهم يسحب شيئاً ما معدنياً.

" كلا كلا أرجوك لا تفعل آآآآه..ردينة.. "

ذاك الصوت إنه لها! ....

كلا، لا يمكن......

إنتفض جسدي لا إرادياً حاولتُ مراراً وتكراراً فك الرباط الذي أجهل خامته حتى شعرتُ بدمي الدافئ ينساب حول معصماي لم أشعر بالألم قط فقد ثارتْ ثائرتي عند سماعي لصراخ مايا كانتْ ولا زالتْ تصرخ وتنادي بإسمي مستنجدتاً من أمر ما على وشك الحدوث، لم أكترث لشئ بل إستمررتُ بمحاولة الفكاك من القيد وتهدئتها ببعض الكلمات فضّلتُ الموت حينها على سماع تلك الصرخة التي تلاشتْ بعد لحظاتْ، صرختُ ألم حارق خرجتْ من حنجرتها لتوقف كل شئ فيّ ما عدا الدموع التي تورمتْ عيناي من غزارتها إنتهى كل شئ.. هدء جسدي بعد تلك الإنتفاضة ليعود الهدوء مجدداً إلا أنه كان حزيناً بائساً هذه المرة بالنسبة لي، أصبح البرد قارساً فجأة، شعرتُ بالظلام الحالك رغم وجود بصيص الضوء، صوتُ الخطوات يقترب مني حسناً إنه يتوقف عند أذناي بالضبط لأرى ظل أسود يرتفع فوق رأسي، ضحكة رجولية إنطلقتْ من الظل تبعها: هل ترغبين بوجبة خفيفة يا آنستي؟

صوت سحب ذاك المعدن مجدداً شعرتُ بحرراة هائلة تقترب، في أخر لحظة أدركتُ بأن المعدن كان قدراً .. إلتقى ظلان ليحملاه فوقي كان ممتلئ بزيت مغلي أو ما شابه لم أعي شئ بعد ذلك فقد بدأتُ بالصراخ بينما بدؤ هم بسكبه عليّ..

النهاية ....

هل حانتْ؟

لما لازلتُ قادرتاً على الصراخ؟

يفترض بأني ميتتُ الآن كيف هذا؟ فتحتُ عيناي لأجد أمي تمسح على رأسي بفزع محاولتاً تهدئتي بينما زين منهمك بصفعي بخفة على خدي توقفتُ عن الصراخ، رمقتهم بنظراتِ التساؤل الفزع كل تلك التعابير المشابهة لهما بينما إحتضنتني والدتي وأخذتْ بمسح دموعي وهي تردد " مسكينة صغيرتي بالتأكيد كان كابوس مريع "

وقف زين أمام الباب وقال ساخطاً قبل خروجه: عليك نسيان أمر العمل هناك من الآن فصاعداً.

ثم ذهب في حين شرعتُ بالبكاء بصوتٍ عالٍ في حضن والدتي الدافئ إختلطتْ مشاعري حينها بين خوف عند تذكري للصراخ وملامح تلك الفتاة وبؤسٍ عند تذكر صوت مايا وهي تنادي بجزع وأخيراً بالسعادة لكون كل ذلك قد كان مجرد كابوس لعين إبتعدتُ عن والدتي بعد إحساسي برعشة جسدي اللاإرادية وذلك لكي لا أُفزعها ثم تسائلتُ عن الوقت صدمتُ لمعرفة أنها السادسة فلم أشعر بأني إرتحتُ كل ذاك الوقت، على كلٍ يجب علي التجهّز للذهاب إلى العمل، لم أنسى ما قاله زين للتو إلا أنني لم ولن آبه للأمر أقنعتُ والدتي بالنوم بعد أن أوهمتها بأنني سأعود إلى الفراش مجداداً ثم انطلقتُ قاصدتاً القصر منتهزتاً فرصةَ إنشغال زين، تخطيتُ بوابة القصر عازمتاً على قضاء يوم جيد دون منغصات.

لم تهدأ روحي حتى أبصرتْ ذاك المظهر الذي إعتادته .. حديقة القصر .. وقد إزدانتْ بضباب خفيف إلا اني أكاد أرى ذرات المياه بوضوح وهي تسبح في الهواء دخلتُ غرفة

الطبخ لأجد مايا جالستاً على كرسي خشبي قِبَاَلتَ النافذة المستطيلة الضخمة التي تتسابق قطرات المياه على سطح زجاجها وقد كانتْ مغلقة لمنع البرد من التسلل لقتل دفئ الغرفة كوب من القهوة الساخنة يتصاعد بخار متراقص منه، كانتْ تمسك بين يديها كتاباً ما وتبدو كتمثال جامد لحورية ترنو إلى لؤلؤة بحرية لامعة وسط محّارة بشغف وقد كانتْ اللؤلؤة بالنسبة لمايا هي صفحاتٍ الكتاب الثلجية.

: صباح الخير مايا.

قلتها بتردد فلم أشأ أن أوقض روحها التي خرجتْ وباتتْ صديقتاً لأبطال الكتاب أجابتْ كمن إستيقظ من حلم: صباح الخير أخيراً وصلتِ كنتُ في إنتظارك.

وقفتُ أمام النافذة التي لم يُعَدْ يُرى من خلالها من تكثّف الضباب على سطحها وقلتُ وأنا أجوب بسبابتي على زجاجها أرسم خطوطاً ورموزاً عشوائية: أحب الأيام الضبابية.

قالتْ مرتشفتاً من كوبها القليل: كلا .. لا أشعر بالإرتياح إطلاقاً في الأيام التي يكون فيها الضباب كثيفاً على عكس المشرقة منها .. كم إشتقتُ إلى الصيف.

قلتُ ساخرتاً مع ضحكة قصيرة: ربيع شتوي .. هذا ما يصلح لوصف الربيع لهذا العام.

ثم استطردتُ مشيرتاً إلى الكتاب بعد تذكري لأمره: كنتِ مستمتعتاً للغاية بقرأته.

أجابتْ وقد شغفها حب القراءة: إنها رواية رائعة بالتأكيد كنتُ مستمتعتاً بقرأتها.

قلتُ بحماس ممزوج بالشوق لسماع حديثها عن ما تقرأه: عن ماذا تتحدث؟ هلا أخبرتني؟
أجابتْ بسعادة: حسناً إنها رواية تصوّر أسطورة قديمة تتحدث عن رجل مسن يعاني من .. ربما من الأفضل لك تجربة قرائتها بنفسك سيكون الأمر أكثر إمتاعاً

: موافقة ولكن بعد إكمالك له.

ثم أمسكتُ الرواية لأرى العنوان دُهشتُ لرؤيته فقد كُتِبَ بخط اليد" الجبال المغنية " رددتها بتعجب ناظرتاً إلى مايا التى أجابتْ: أها... الجبال المغنية ما الغريب؟ أنه أمر ستكتشفينه بين طيات أوراقه.

تسائلتُ بعد أن قلّبتُ صفحاته الأولى: أوه! .. كتب بخط اليد هذا غريب! أين وجدته؟

أجابتْ: ربما يكون الأمر غريباً فقد تعجبتُ أنا أيضاً حال رؤيته إلا أن هذا سيمنحك شعور الكاتب ومشاعره أما عن مكان وجوده فهو من حيث أجلب كل الكتب التي أقرأها مكتبة القصر "ثم إستطردتْ بصوت عالٍ كعادتها في الكلام" الفطـــور.

شرعنا بتحظير الإفطار وقد إستمتعنا كالعادة، بعد إنتهائنا من إعداده جهزناه فأتى الخدم لأخذه جلسنا نحن بدورنا على الطاولة لتناول إفطارنا، وبعد مدة ليستْ بالقصيرة حيث كنا نتحدث في هدوء عن لذة إحدى الأطباق المحليّة إخترقه فجأة صوت إرتطام جسد ما بالأرض حانتْ منا إلتفاتة نحو مصدر الصوت فإذا به ذو الملامح البلهاء ممد على الأرض يتألم كان في الحديقة وقد قفز عبر النافذة إلى غرفة الطبخ ركضتْ مايا نحوه في فزع ثم حملتْ رأسه بين ذراعيها وقالتْ بصوت تتخلله رعشة الخوف: صهيب هل أنت بخير؟ صهيب أجب ..

صهيب الذي لم أعتد رؤيته إلا سعيداً أراه الآن يرتعد خوفاً من أمر ما، منعته شدة الألم الذي كنتُ مؤمنتاً بأنه ألم نفسيّ لا جسديّ من الحديث فقط إكتفى بإبعاد ذراعي مايا والإستلقاء على الأرض دون حراك محاولاً إلتقاط أنفاسه بينما لم أبرح أنا مكاني قط فقد كنتُ أتأمل ما يحدث بصمتْ تبادلتُ مع مايا نظراتِ التساؤل ففاجأنا صهيب بالتكور على نفسه كما أخذ جسده بالإرتعاش أمسكَ حينها بيد مايا التي بدأتْ الدموع بالإنهار من عينيها خوفاً مما

حصل له وتساؤل في جوفها عما تفعله ثم قال بصوت خفيض أشبه بالهمس: مايا ..لن أحتمل رؤية المزيد منهم..

مسحتْ مايا بأنامل يدها الأخرى على شعره الكستنائي الكثيف وأخذتْ تطمإنه ببعض العباراتْ فشعرتُ بأن وقت انسحابي قد حان ففضلتُ تركهما على إنفراد وخرجتُ دون النظر إلى مايا حتى، رغبتُ وبشدة في الذهاب إلى عُشِّي الدائم فلا أُفضل التحدث مع باقي الخدم بغض النظر عن الوعد الذي قطعته مع مايا جلستُ تحت شجرة الصنوبر التي أحب صوت خرير الرياح التي تداعب أوراقها أسندتُ رأسي إلى جذع الشجرة ورحتُ أتأمل السماء الزرقاء التي إنتثرتْ الغيوم البيضاء عليها تغريد العصافير صوت ضحكات المياه من الجداول كل شئ أصبح مثالياً مجدداً أغمضتُ عينيّ وأخذتُ شهيقاً طويلاً تبعه زفير شعرتُ بكل الأفكار السلبية تغادر معه ... أحسستُ فجأتاً بشخص ما يجلس بجانبي إنفرج جفناي لأتمكن من رؤيته إستمال جذعي للخلف كردة فعل غريزية للفزع لم ألبث حتى هدئتُ وطأطأةُ برأسي في خجل فهو أخر من أرغب برؤيته الآن، ظهرتْ ابتسامته الحانية ثم قال بصوته الهادئ: أسف لإزعاجك يا آنسة، هل تسمحين؟

إحترتُ بما أجيب لكن بالتأكيد لا أريد جرح كبريائه بقولي " لقد جلستَ بالفعل فلما الإستإذان " لذلك أومأت برأسي كمن يقول " لا أمانع "

شرد ذهنه في جداول الزهور لفترة طويلة حتى كدتُ أقوم لأغادر المكان خجلاً لكنه قال

: أراك قد تعلقتِ بتفاصيل هذا المكان؟

أومأتُ برأسي كمن يقول " وبشـــدة "

تلاشتْ إبتسامته ليظهر شبح الحزن محلها ثنى قدمه اليمنى ووضع مرفقه عليها بينما فرد القدم الأخرى وأخذ يخلل شعره الأسود الطويل بأصابع يسراه النحيلة قائلاً بتوتر ملحوظ : أعلم بأنك لن تجيبي ولكن هلا تستمعين لما أقول؟

أومأتُ بنعم دون النظر إلى وجهه، أسند ظهره إلى جذع الشجرة الضخمة وأشاح بوجهه عني ثم قال: قد لا تتوقعين سماع هذا من رجل قابلتيه منذ أيام قليلة لكني أود وبشدة لسبب ما التحدث معك بشأن الكثير .. وقد قررتُ ذلك بعد نصحك بالأمس وقد قلتُ لنفسي إن قررتِ القدوم أتحدث إليك وإن إخترتِ البقاء في منزلك كانتْ لتكون النهاية لكن ها أنتي ذا قد قررتِ شق طريقك بكل شجاعة وبصدر رحب لما هو قادم إنتابني شعور الحماس الذي ينتابك في بداية الأمر إلا أني أعض أصابعي ندماً الآن ولولا والدي من تدعونه الآن بالسيد حازم لما كنتُ هنا.

رددتُ في جوفي مراراً " والدي من تدعونه بالسيد حازم" فغر فاهي كما اتسعتْ عيناي صدمتاً لسماع الأمر.

ثم أردف: هذه حقيقة الأمر لم أهتم يوماً لكيفية لقائهما ولم أسأل أمي عنها إلا أن والدي حازم قد تزوج بأمي عندما كان صغيراً جداً في العمر أمضيا معاً أربعة أعوام عقبها حدوث مشكلة بينهما بالتأكيد لم تكن معقدة إلى درجة الإنفصال إلا أنه رغب بذلك على أية حال طرد والدتي من المنزل ولم يعلم بحقيقة حملها بي حكتْ لي كثيراً عن المراتِ التي ذَهَبَتْ فيها له لتخبره أن له ولداً تركه خلفه إلا أن والدي لم يصدقها وأتهمها بالإفتراء فقط لكي ترث ماله وبهذا عشتُ مع والدتي حتى سِن السابعة عشر وتوفيتْ عندها بمرض عضال كانتْ خلال تلك السنين المؤنس الوحيد لي .. كما تعلمين فتى مراهق بلا والدين بلا عمل ثابت ودون هدف واضح إلى ما سيؤول عليه حاله إستمرتْ حالتي بالتدهور أخلاقياً إلى أن

أصبحتُ مشهوراً بألفاظ الحثالة لكن ولا أعلم لما تأخر فالإستيقاظ ما أستيقظ بداخلي فعدتُ إلى رشدي في سن السادسة والعشرين إلا أن سمعتي لم تعد إلى ما كانتْ عليه كما أتيتُ إلى حازم ذاك بعد يأس من هذه الحياة لأخبره بحقيقة ما خلّفه من بعده وأني إبنه إلا أنه إتهمني بالجنون وطردني، عندما بلغتُ من العمر التاسعة والعشرين وكنتُ قد وجدتُ عملاً جيداً أتى أحد خدمه لي بدعوة منه للعمل لديه ربما بداعي الشفقة لا أكثر رغم أن عملي قد كان جيداً إلا أني فضلتُ العمل هناك وقد ندمتُ أشد الندم كما أخبرتك سلفاً.

لم تغادر ملامح التعجب محياي بل إزدادت وضوحاً قلتُ في جوفي ساخرة" حسناً ماذا بعد؟ أتكون مايا إبنة السيد حازم هي الأخرى ؟"

ثم أردف بحزن: لم تكن طفولتي بل حياتي بالأحرى جيدتاً حتى هذه اللحظة خصوصاً بعد وفاتها .. كنتُ دائماً ما أتلقى التوبيخ والتعنيف العلنيّ من أرباب عملي ضاربين بكرامتي أسافل الأرض لأعود إلى المنزل وأعتنق ظلمة الغرفة وأفترش برد الأرضية وألتحف بأحزاني ودموعي لأحلم بذكرياتي الدافئة مع والدتي.

رفعتُ بصري ناحيته فأراه يعود لشروذه إلا أني لاحظتُ هذه المرة لمعتَ حزن في عينيه لم تعقني خصلات شعره التي إنسدلتْ على جبينه من رؤيتها بوضوح، ثم قال: كل شئ كان في أشد السوء..

عاد الصمتُ مجدداً ليصبح سيد المكان لا أخفي عنكم شعوري بالأسى حينها وكم تمنيتُ أن أفعل فعل مايا لأهدء أحزانه التي إهتاجتْ بعد ركود لكن شئ ما كان يردعني، إستمر الحدام بين مشاعري إلى أن بدأتُ بسماع صوت فتاتين تتحدثان بسعادة تنعش ضحكاتهن المكان إتهمتُ أذناي بالكذب عندما سمعتُ أصوات سلاسل حديدية تُجَرُ وتقترب مع إقترابهن ما إن لاحا في الأفق حتى أستطعتُ رؤيتهما بوضوح فتاتان من غرفة تقطيع الخضار

الأصفاد نفسها الكدمات الملابس حتى الضمادات أتذكرها، حالما أدركتُ أن مرساهما على مينائنا أغمضتُ جفنيّ بقوة كما لففتُ ذراعيّ حولي في فزع لم أرد حقاً إسترجاع ذكريات الأمس كنتُ خائفتاً حد الموت وهذا ما أدركه جواد وكان ليدركه أي منكم حال رؤيتي فقال: عجباً! .. مما أنتي خائفة؟

كانتْ صواتهنّ تقترب شيئاً فشيئاً لم أستطع كبتَ مخاوفي أكثر فأسرعتُ بإخفاء وجهي خلف كتف جواد الذي قال حينها بإستغراب: أوه! على رسلك يا آنسة لما كل هذا الفزع؟

: آنسة؟!

قالتها إحدى الفتيات متسائله وقد كان صوتها طفولياً رقيقاً بما تحمله الكلمتان من معاني فقالتْ الأخرى بنبرتِ صوت تشبه سابقتها: جواد أيعقل بأنك تناديها يا آنسة؟!

أجاب جواد بضحكة قصيرة تلاها قوله: حسناً لم أجد فرصتاً لسؤالها عن إسمها.

قالتِ الأولى: أوه! نسيتُ إخبارك إذاً، إسمها ردينة.

رددها جواد بتمعن وكانتْ المرة الأولى التي ينطق فيها إسمي وهذا ما أنساني التساؤل عن كيفية معرفتها له: ردينة ؟ يا له من إسم جميل.

قالتْ الأخرى: هيه! .. لما تخفي وجهها عنا؟

كنتُ حتى هذه اللحظة لا أسمع سوى أصوات المحادثه حتى إنزاح جواد ليبعد كتفه عن وجهي ثم قال: لن يؤذيك أحد في الجوار كما تعلمين.

فتحتُ جفناي ببطء لأتمكن من رؤيتها تجمدتْ الدماء في عروقي فقد كانتْ إحداهن تلك الفتاة التي رأيتها في كابوسي وهي تقول " هذا مؤلم " العينان الجاحظتان بلونها الأسود الصلب، الأنف المستدق، الشعر القصير، كل هذه التفاصيل تمكنتُ من ملاحظتها ثم

ألقيتُ بنظري على الأخرى فإذا بي أرى فتاة قليلة الجمال إلا أن برائتها تعوض هذا النقص كما كان شعرها طويل إلى حد ما إستمالتْ الأخيرة بجذعها نحوي مدققتاً في ملامحي ثم قالتْ بدهشة: إنها جميلة حقاً كما وصفتِها يا ندى.

قال جواد مشيراً إليها: ردينة هذه مرام أما ذاتُ الشعر القصير هي ندى الشقية التي حدثتك عنها مسبقاً.

لم يتغير حالي بتاتاً فلازلتُ أطوف بين خوف وإندهاش وتعجب دون أن أنبس ببنت شفة قالتْ ندى بسخرية: ألازلتِ تقطعين الوعود المثيرة للشفقة مع مايا تلك؟

أردتُ التكلم حينها وبشدة إلا أني لم أستطيع ذلك وقد لاحظ جواد إحمرار وجهي حنقاً فانتصب أمامي واقفاً ليمد لي يده كأمير شهم يساعد أميرة حسناء لصعود عربتها الجميلة المرصعة بالماس أمسكتُ بيده بعد تردد لأقف ثم إبتسم جواد إلى ندى ومرام ملوحاً لهما

: أسف ولكن يجب عليها إعداد وجبة الغداء للسيد حازم.

ثم اتجهنا نحو القصر فقال بعد صمت: أسف بشأن ما قالته ندى في الحقيقة يجب عليك الإعتياد على طريقة حديثها لا تقصد به الإساءت لأحد لكن ..

توقف عندما لاحظ توقفي إستدار ناحيتي وقد همّ بالسؤال إلا أنه دُهش لم أتمكن من حبس مشاعري أكثر مما فعلتْ إنسابتْ الدموع بشدة من عيني طأطأتُ برأسي وسط تساؤل من جواد عن سبب بكائي جلستُ القرفصاء وهممتُ بالكتابة على الثرى بسبابتي

" هل جننت؟ "

إنحنى جواد ليتمكن من قرائة ما تخطه يدي لم أتوقع إجابته البته وقد أشعرتني بمدى تهوري قال ببرود بعد أن قرأ ما كتبتْ: ألـم يكن هذا خيارك؟!

شعرتُ من جهة أخرى أن إجابته هذه قد أوقفتْ نزيف تساؤلاتي فقد أيقنتُ بأن كل ما يحدث لي الآن كان خياراً قد إخترته بنفسي ويجب علي تحمل عواقبه، وصلنا إلى الباب الخلفي لدخول الخدم ثم قال قبل أن يغادر: صمتك لن يخفي حقيقة وجودهم حولك .. إلى اللقاء.

أغلقتُ الباب وإستندتُ عليه لأشرد متذكرتاً عينيه .. إن أعدتُ التفكير بالأمر لم يكن جواد كما حسبته بارداً لا مشاعر له .. غامضاً يلون الأسود حياته .. إنطوائي لايحب تواجد أحد بجانبه .. بل العكس .. أظهر اليوم لي جانباً من شخصيته لا يراه كل من يعرفه أو هو من يتعمد إخفائه وربما الظروف التي يعايشها هي من أجبرته، في الحقيقة كدتُ أبكي لحزنه حينها إلا أني تماسكتْ لم أرى حينها إلا رجلاً يفيض الحنان من عينيه .. طيب القلب .. لبق مهندم في حديثه .. رغم ما واجهه في الحياة إلا أن إبتسامته لا تزال مرسومتاً على شفتيه.. ووسط شروذي في محاسنه تذكرتُ مايا فأسرعتُ بطرد هذه الأفكار والذهاب للمساعدة لكن توقفتُ لأبتسمتُ كما ملأة السعادة فؤادي فقد أدركتُ حقيقة مشاعري تجاهه، لاحظتُ وصولي إلى غرفة الطبخ فتحتُ الباب ببطء فإذا بصوت مايا الشجي يعم المكان تُحَرِك يدها ما بالقدر بينما تتمايل هي بإنسجام مع الألحان حالما أغلقتُ الباب إستدارتْ ناحيتي بإبتسامتها المعتادة تسائلتُ وأنا أقترب للمساعدة : تعدين الغداء صحيح؟ يالي من كسول. أجابتْ: لم تفتك فرصة المشاركة هَلُمِ لننتهي بسرعة.

أثناء طهونا لاحظتُ رغبتَ مايا في قول شيء ما، هممتُ بسؤالها إلا أنها بادرتْ قائلة: كنتِ تبدين سعيدة بحديثه معك.

قلتُ بكل إندفاع ملاحظتاً إنبهار مايا لقولي: أجل كنتُ سعيدة بذلك حسناً في الواقع كان ألطف مما توقعت .. لا تقلقي فلم أمكث الوعد كما أنه قد باد..

قاطعتني قائلة: رأيتُ كل ما حصل.

أتممنا عملنا في صمتْ فقد شعرتُ للمرة الأولى بأن مايا لا تريد سماع حديثي وذلك لأنه عن جواد لازلتُ أبحث عن سبب كره مايا المطلق له إلا أن إيماني بعدم وجود سبب فعلي لم يفتأ تفكيري.

شعرتُ فجأة ودون سابق إنذار بأن الغرفة أصبحتْ ضيقة إنكماشة غريبة حلتْ على رئتي عَرَقٌ يتصبب من جبيني إنقباضات مميتة في ماعدتي ما هذا الكم من الفزع لم أحتمل المكوث في المطبخ لذلك هرعتُ إلى الخارج أقفلتُ الباب وجثيت على ركبتي قِبَالَتَ جدول الزهور محاولتاً إدخال أكبر قدر ممكن من الهواء إلى رئتيّ، سمعتُ حينها مايا تنادي في فزع بإسمي إلا أن شفتاي أبتا التحرك إستمر ندائها حتى إنقطع فجأة حاولتُ تهدئتَ نبضات قلبي التي بدأتُ بسماع طنينها في أذناي بعد لحظات لاحظتُ نجاحي في ذلك ما إن استقرتْ حالتي قليلاً حتى فتحتُ الباب الخلفي لدخول الخدم الذي خرجتُ منه مسبقاً والذي يمتد منه دهليز تصطف على جانبيه أبواب الغرف الإحتياطية لمبيت الخدم لتواجهك في نهايته غرفة الطبخ بجانبها غرفة تقطيع الخضار.

تراجعتُ بضع خطوات للخلف لا أردد في جوفي سوى " أهربي " كانتْ إمرأة قد إنسدل شعرها الكستنائي الطويل المموج على وجهها تغطي يديها الضمادات المهترِأه تنتشر بقع الدم البنية على ملابسها كما أنها تقفز في مشيتها يعينها الحائط في السير فقد بُترتْ ساقها اليسرى وأخيراً تلك الأصفاد اللعينة التي أكل الدهر عليها وشرب ثم صوت السلاسل المتدلية منها التي تجر على الأرضية الرخامية، رفعتْ رأسها ناحيتي لتبتعد خصلاتها عن وجهها وما إن رأيته حتى أعلنتُ رسمياً جنوني أنا لا أكذب أنا فقط أصف لكم ما أراه وبكل بساطة كانتْ تلك المرأة أنــا .. أسمعكم تقولو أعيدي النظر لابد أنك تتوهمين ولكن ها أنا ذا أقول لكم

إني أهراها بوضوح هذه أنا إنها أنا رديـنـه كدتُ أخذ بنصيحة الهرب إلا أني سمعتها تهمس بشئ ما حاولتُ تمييز الأحرف

" إستمعي إلى بكاء قلبها ولا تكتفي بإبتسامة شفتيها "

لم أجد الوقت للسؤال فقد سمعتُ صوت بكاء ولم أحتج للتفكير لمعرفة أنه لمـايا غريزياً ركضتُ بسرعة البرق متتبعاً الصوت وقد كان خافتاً لبعده شعرتُ بفزع عظيم ورحتُ أدعوا الله أن أصل في الوقت المناسب إقتربتُ من منبع الصوت إنه يصدر من تلك الغرفة ما إن دفعتُ الباب بقوة جنونية حتى صرختُ بقوة لعينة " مـــــايـــــــا "

مهلاً!

هل هذا السيد حازم؟ صهيب لينا والسيدة نرمين لمـا يرمقني الجميع بنظرات الفزع الممزوج بالتعجب أنتظري إنهم......

أوه! كلا .. كلا .. الرحمة أنا الآن في غرفة الطعام الرئيسية والجميع كان يتناول الطعام في هدوء إلى أن أتت خادمتهم المجنونة لإفزاعهم أشار السيد حازم نحوي بشوكته قائلاً بإشمئزاز: أهذه هي الخادمة المستجدة إبنة ذاك الـ#..؟

أجاب صهيب في خجل من مايا لأسلوب والده: أجل إنها هي.

ظهر تعبير أشبه بالإبتسامة الساخرة على وجه السيد حازم وهو يكمل طعامه بينما شعرتُ أنا بِرَجُلَين يسحبانني من ذراعي ليلقيان بي خارج الغرفة مغلقان الباب وقفتُ محاولتاً إستجماع أفكاري .. كيف أظهر لنفسي هكذا؟ كيف انتهى بي المطاف في غرفة الطعام؟ وماذا عن بكاء مايا؟ للأسف كان الجواب لكل تلك التساؤلات " لا أعلم " كل ما كنتُ متأكدتاً بشأنه أن صراخ مايا كان مجرد وهم من الأوهام التي بدأتْ بغزو عقلي مؤخراً، رحتُ

أجوب القصر دون معرفة الوجهة فلم أرد الذهاب إلى شجرة الصنوبر خِشْيَتَ ملاقاتِ جواد ولم أرد الذهاب إلى غرفة الطبخ خشيت ملاقاتِ مايا إلا أنه خطر ببالي فجأة الذهاب إلى مكتبة القصر فلم أرها من قبل إنطلقتُ متجهتاً نحوها وما إن وقفتُ أمام بابها العتيق الضخم الذي تتمدد على سطحه البني اللامع الكثير من النقوش والزخارف القديمة شعرتُ بمدى أهمية المكان فتحتُ الباب بهدوء وذهلتُ من روعة ما يقع عليه بصري مساحتها أضخم مما تبدو عليه من الخارج تصطف مئات الأرفف المليئة بالكتب داخلها ما لفتَ إنتباهي حقاً تلك النوافذ الشبيهة بنوافذ الكنائس الضخمة تبدو رائعتاً بحق تنقلتُ هنا وهناك أجوب بعيني في سحر المكان وهدوئه النقي.

: عفواً.

إلتفتُ مباشرتاً ناحيتَ الصوت وقد كانتْ إمرأتاً لنقل بأنها قد بلغتْ الخمسين من العمر تكفل الشيب بغزو ضفيرة شعرها بينما عاثتْ التجاعيد فساداً في وجهها قصيرة القامة نحيلة بعض الشئ عينان قاتمتى السواد أنف مستدق وفم صغير كانتْ الجدية وحدة الطباع تفيضان من ملامحها قالتْ بصوت خشن واثق: عفواً تعلمين أن أفراد العائلة هم فقط من يدخلون إلى هنا ولا يسمح لغيرهم من الخدم.

قلتُ متأسفة: عفواً يا سيدة لم أكن أدري فأنا مستجدة هنا.

ولم أنتهي من جملتي حتى وضعتُ كفي على فمي فقد تذكرتُ وعدي لمايا.

ظهرتْ ملامح الإنبهار الطفيفة عليها قائلة: أنتي إذا الخادمة الصغيرة؟ سمعتُ عنك الكثير من ندى.

لم أنبس ببنت شفة فقط كنتُ أراقبها وهي تقترب من النافذة المطلة على الحديقة وتضع كفها على زجاجها قالتْ بعد أخذها لنفس عميق: لما تناضلين من أجل البقاء؟ من أجل من تستعدين لرؤية الوجه الحقيقي لهذا القصر؟ إرحلي يا عزيزتي قبل فوات الأوان.

تلك الكلمات مجدداً المزيد من التحذيرات المبهمة كنتُ على وشك التساؤل إلا أني توقفتُ بمجرد تخيلي لملامح مايا الحزينة عند إخبارها أني مكثتُ الوعد رمقتني المرأة ذات اللباس الأزرق المهندم بنظراتِ الأسى مشيرتاً بيدها كمن يطلب القدوم ثم قالتْ: كيف ترين الحديقة ؟

تقدمتُ ملقيتاً بناظري خلال النافذة ثم أعدتُ النظر إلى المرأة كمن يقول " جميلة "

تَنَهَدَتْ بإرتياح لسبب ما ثم غادرتْ المكان أما أنا فأكملتُ جولتي في المكتبة ورحتُ أقلبُ بعض كتبها بين الفينة والأخرى حتى إستقرتْ قدماي أمام نافذة أخرى رأيتُ من خلالها مايا تركض بأرجاء الحديقة محاولتاً إيجاد شخص ما شعرتُ بالأسى فقد كنتُ متأكدتاً أن من تبحث عنه هي انا لذلك إتجهت بسرعة إلى الخارج ألعن ضخامة القصر لم أبحث كثيراً فقد توقفتُ عند رؤية مايا جالستاً تحت شجرتنا تبكي بشدة ما أشعرني بالدهشة وقوف جواد بجانبها يحاول تهدئتها إقتربتُ بخطوات صغيرة منهما وحال ما رأني جواد صاح بإسمي فَرِحاً تبعتها مباشرتاً إلتفاتة من مايا نحوي هرعتْ بعدها لمعانقتي قائلة: أين اختفيت؟ بحثتُ عنك في كل مكان ظننتُ أن مكروها ما قد أصابك، أتيتُ لسؤال جواد عنك إلا أنه لم يرك.

أجبتُ هامسة: أسفة فقد كنتُ أتجول في المكتبة.

تقدم جواد ناحيتي ثم أراح كفه فوق رأسي معيداً إلي بفعله ذلك ذكريات مضتْ ثم قال

: تعلمين كم تخشى مايا إبتعادك عنها صحيح؟

تبادلتُ مع مايا النظرات فذهلتُ لموقفها إبتسامتها المعتادة ترتسم على ثغرها كما أن السعادة تفيض من عينيها أطلتُ النظر فأدركتْ صدمتي أخذتْ بالضحك ثم أشارتْ إلي كمن يقول " تحدثي معه " بادر جهاد بالتحدث قائلاً : أخبرتني بكل شئ كما شرحتْ لي سبب قطع وعد هكذا معك وأ.. ما رأيك أن تحديثها بنفسك " ثم أبتعد مفسحاً لمايا المجال.

إقتربتْ مايا تعلو وجهها حمرة الخجل قائلة: كنتُ أنانية بتصرفي هذا لم آبه لسعادتك الغامرة بالتحدث معه ورغبتك الشديدة في تواصلك مع بعض الخدم لذلك أنا أسفة لكوني أنانية معك كما أرجو منك التحدث معهم بقدر حديثك معي.

لا داعي لشرح الكثير فالجميع يعلم مدى السعادة التي إنتابتني حينها كما شعرتُ بأن تعلقي بالقصر قد إزداد أضعاف مضاعفة أكتمل يومي كالعادة وبعد توديعي لمايا وقولها لي جملتاً إتخذها قلبي أغنية له " لم أشعر قط بهذا الكم من السعادة قبل معرفتك " إنطلقتُ إلى الحديقة باحثتاً عن جواد مررتُ بالقرب من الغرفة المشيدة في قلب الحديقة لعلي أجده بالقرب منها إلا أني سمعتُ فجأة إرتطام باب الغرفة وخروج أحدهم منها إنتشر ضوء المصباح في المكان فإنحنيتُ لأرى من هو فإذا به ذاك العجوز اللعين يلتف يمنتاً ويساراً بحثاً عن أحدهم ثم ذهب راكضاً بشكل جنوني نحو مكان ما غمرني الفضول رغم شعوري المميت بالخوف إلا أني تتبعته بصمت بعد وصولي رددتُ في تعجب : جداول الياسمين؟!

إنتصب أمام جداول الياسمين ثم جثا باكياً أمامها يتمتم بشئ ما ربما هي كلمات إعتذار شعرتُ حينها بخوف جمد أواصري كدتُ أرحل إلا أنه إنتفض واقفاً ثم قال صارخاً

: أين هي؟

ثم أردف بعد صمت قصير: في الأرجاء؟

صمتَ ثم قال وهو يستدير ناحيتي مبتسماً بين دموعه: مـاذا؟ .. خلفي؟

لم أستطع كبتَ صرخةِ فزع أطلقتها عندما أصبح أمامي في لمح البصر تجاعيده المقرفة عيناه الحمراوين المتورمة من البكاء أسنانه المتهالكة التي كشفتْ عنها شفتان شاحبتان كل تلك التفاصيل المزعجة تمكنتُ من رؤيتها بوضوح قال هامساً.

: ألا تسمعين أنينها؟ .. إنها تإن لأجلك يا عزيزتي .. إستمعي جيداً " مشيراً ناحية الياسمين

: إستمعي جيداً لما تقول، إنها تطلب منك الرحيل أما أنا .. أجل أنا أطلب منك البقاء لأجلي يا عزيزتي.

ثم قال متسائلاً بصوته الهرم: ألا تصلك رسائلي التي أخطها بيدي؟ يا إلهي يال المصيبة لن تسامحنني صحيح؟

جثا مجدداً ناحية الياسمين : أنا أسف أرجو منكن السماح أنا أسف.

أما أنا فقد كنتُ مذهولتاً من جنونه فزعتاً من تصرفاته الكفيلة بفقداني لعقلي إنه مجنون حـ..

يا إلهي! .. أسمع أصوات غريبة من خلفي إستدرت ببطء ناحية الصوت أوه أخيراً إنه جواد إنسحبتُ بهدوء بينما كان العجوز منشغلاً بالإعتذار حال وصولي كدتُ أنطق بكلمات الترحيب إلا أنه أمسك ذراعي وركضنا إتجاه الغرفة ما إن دخلنا حتى أوصد الباب خلفنا ثم قال: بلهـــــــاء تتجولين منتصف الليل في حديقة مشبوهة كهذه بربك فيما كنت تفكرين؟

: كنتُ أبحث عنك.

بتوتر: عني؟

: أجل أردتُ سؤالك بعض الأسئلة.

صمتَ هو بينما تفقدتُ أنا الغرفة بناظري متوسطة الحجم بها نافذة واحدة مستطيلة على جانبيها إمتدت ستائر بنية جميلة في إحدى الزوايا يتواجد سرير مريح ذو ملائة بيضاء بالإضافة إلى طاولة خشبية تنصب من فوقها مزهرية خزفية تزينها الورود اليانعة مع وجود مكتبة صغيرة ممتلئة بالكتب يجاورها كرسي قلتُ متسائلة: هل أنت متأكد بأن ذاك العجوز يشاطرك الغرفة؟

قال مازحاً: أهذا سؤالك الأول؟

أردف بسرعة بعد أن رأى ملامح السخرية المنطبعة على وجهي: كلا كنتُ أمزح فقط في الحقيقة دائماً ما أسئل نفسي ذاك السؤال فهو يدخل ويخرج والغرفة مرتبة لكنه لا يرتب الفوضى التي أحدثها، غريب!

قال ساحباً الكرسي ليجلس: على أية حال ما كانتْ أسئلتك تلك؟

جلستُ بدوري على السرير: ما قصة القصر ولما أطلقتَ عليه (الجحيم) ذات مرة؟ ما قصة الأوهام التي تراودني منذ دخولي إليه؟

إمتقع وجهه كما ظهر التوتر عليه بوضوح ثم قال: هل أنتي متأكدة من رغبتك في معرفة ذلك؟
قلتُ بإنفعال شديد: أجل..

تنهد بحزن وقلة حيلة ثم قال: لكني أشك فـ..

توقف عن الكلام فقد كنا نسمع أصوات عالياً لشخص ما يركض تجاه الغرفة إتجهتْ أنظارنا مباشرتا إلى النافذة صرختُ بقوة راكضتاً نحو جواد الذي وقف لحمايتي إنه ذاك العجوز

مجدداً تلتصق ملامحه المخيفة على زجاج النافذة تدمع عيناه بينما تبتسم شفتاه وقد بدأ اللعاب يتسايل منهما في تلك اللحظة أجزمتُ بجنونه إستمر بالطرق على الزجاج يكرر قول شئ ما بطريقة مرعبة إقترب جواد من الزجاج ليتمكن من سماعه ثم إرتفع صوته محاولاً تقليد صوت العجوز قائلاً : لا تخبرها وإلا ستُخَلّدُ في القصر.

ثم أردف جواد بصوته: الأبله قد جُن!

أكمل وهو يعدل الكرسي ويدعوني للجلوس

: لا تكترثي لأمره ودعينا نكمل هل أنتي مستعدة؟ سأجيبك.

إزداد الطرق حدتاً بينما جلس جواد عل الأرضية الخشبية قِبَالَتي ثم قال بعد أن لاحظ خوفي الشديد وإستمراري بالإلتفات نحو النافذة التي لم يفارقها المسن: ردينة إن كنتِ مؤمنتاً حقاً بقدرتي على حمايتك فانظري في عيني ولا تعيريه أدنى إهتمام.

أخذ يديّ بين يديه فأغمضتُ عيني وأخذتُ نفساً عميق ببطء، شعرتُ بالإسترخاء حينها ففتحتُ عيني لأري جواد مقطوع الرأس إنتفضتُ عن الكرسي صارختاً بفزع لا يصدق سحبتُ يديّ من يديه بقوة وركضتُ نحو الباب باكية إلا أن الجسد أمسكني بقوة أكبر إستمريتُ بمحاولتِ الفكاك لكن لا فائدة إلى أن سمعتْ: ردينة إهدئي ردينة هذا أنا جواد .

إرتفع ناظري إلى وجهه لتلتقي عيني الباكية بعينيه القلقة جثيت مذهولتاً أتمتم " لقد جننت " غمرتُ وجهي بكفيّ وأخذتُ بالبكاء مسح جواد بكفه على رأسي قائلاً: كلا لم تُجنّي يجب عليك الهدوء فقط.

ظللنا على هذه الحالة لمدة طويلة قلتُ بصوت منهار: أخبرني أرجوك قل لي كل ما تعلمه عن هذا المكان.

: في الحقيقة لا أعلم الكثير من التفاصيل لكـ..

إختفى الرجل العجوز فجأة من النافذة كما هدء كل شئ قال جواد " أخيراً رحل " همّ بالإكمال إلا أنه توقف مجدداً

قلتُ متعجبة: أهذا صوت أخي زين؟ أم أتوهم؟

قال جواد: كلا أنه حقيقي أتمكن من سماع شخص ينادي.

رمقته بنظرات كمن يقول " قالها السليم قال؟ " إبتسم جواد: هيا لا داعي لأذية مشاعري.

إنطلقتُ نحو النافذة لأرى زين يتنقل في الأرجاء منادياً بإسمي عدتُ إلى جواد قائلة: إن أخي في الخارج بالتأكيد أتى لطمئن بسبب تأخري بالعودة إلى المنزل على أية حال سنلتقي غداً لنكمل حديثنا كن حذراً من ذاك المسن ولا تقترب منه.

قال باسماً: لا داعي لتقلقي بشأني وتذكري حال رؤيتك لتلك الأوهام أغلقي عينيك و...
قاطعته: وأتخيلكَ بجانبي أعلم بالتأكيد سينجح ذلك.

إبتسم: كوني حذرة.

: أشكرك إلى اللقاء.

خرجتُ قاصدتاً زين الذي حالما رأني ركض إتجاهي بينما استعددتُ أنا لسماع التحذيرات والنصائح إلا أنه قال بقلق: كنتُ أبحث ولم.. أعني لما.. كيف.. أين كنت؟

قلتُ متهربة: أسفة على تأخري كنتُ أود إنهاء بعض المشاكل هنا.

محاولاً كبتَ فضوله قائلاً: أها حسناً.. حسناً هيا لنعد إذاً.

أثناء سيرنا متجهين إلى البوابة قلت بتسائل: زين كيف تمكنتَ من الدخول إلى هنا؟

إبتسم بسخرية: تمكنتُ من الطيران بسهولة لأصل إلى هنا.

: ها ها ها .. هيا قل الحقيقة.

: عبر البوابة.

قلتُ بتعجب: البوابة؟ ولكنها تغلق عند العاشرة ولا يسمح حينها بدخول أو خروج الغرباء.

إستمر بالسخرية: يجب عليك مراجعة مواعيد العائلة يا عزيزتي.

: حسناً ألم ترى الشخص الذي قام بفتحها لك؟

: لم أرى أحد منذ دخولي عجباً إن ما يقال عن القصر صحيح كلياً.

: وماذا يقال؟

: هذا ليس المكان الجيد للحديث.

شعرتُ بسعادة غامرة لمجرد سماعي لذلك فأخيراً سأتمكن من إزالة الغموض الذي يكتنف المكان إلا أني لا أنكر شعوري بالخوف من إكتشاف الحقيقة وصلنا إلى المنزل وكان ساكناً هادئاً على حاله عند دخولي إليه دائماً جلس زين على الأريكة بينما ذهبتُ أنا للإغتسال وبعد إنتهائي تهيأتُ سماع ذاك اللحن بصوت طفولي عذب ينطلق من غرفة نوم والدتي مع رامي كدتُ أكمل طريقي نحو زين إلا أن الصوت إزداد وضوحاً وأدركتُ بأنه حقيقي ولا مجال لنفي ذلك تتبعته بهدوء...

" نام .. نام .. نام صغيري نام .. نام بين يديه .. قطعت خيزران .. نام .. نام .. نام أغمض جفنيه .. نام أصبح ملك الأحلام "

فتحتُ الباب ببطء شديد لأرى طفلة صغيرة ترتدي فستان أبيض تمسح بأناملها النحيلة على رأس رامي مغنيتاً تلك التهويدة له إقشعر بدني لرؤيتها خلتُ بأنه حال إقترابي منها سوف تختفي إلا أن ذلك لم يحصل إنحنيتُ لأتمكن من رؤيتها فتوقفتْ عن الغناء ورفعتْ نظرها نحوي مبتسمة برقة ثم قالتْ بصوتها الطفولي الناعم: أمي قد أنجبت لي أخ يشبهه إلا أني لم أتمكن من الغناء له.

حسناً أَصْدقكم القول كنتُ على وشك الخروج ركضاً صارختاً فزعاً إلا أن شئ ما دفعني إلى إصطناع الهدوء فملامحها الطفولية النقية كانتْ تبعث السعادة والطمأنينة في قلبي كما أن الفتاة مألوفة بالنسبة لي صوتها وهي تغني هذه التهويدة ملامحها ملابسها كل ذلك كان مألوفاً بالنسبة لي إلا أني لم أتذكر من هي أو أين رأيتها، قلتُ باسمة: أسفة يا حبيبتي ستتمكنين من الغناء له ..فقط تشجعي.

أجابتْ بوجه ملائكي متسائل وهي تعقد حاجبيها الخفيفان: وهل يغني الموتى؟

إمتقع وجهي وتراجعتُ لخطوات عنها ثم خرجتُ فزعتاً وجلستُ مع زين متاظهرتاً بالبرود أمامه قال متجاهلاً فزعي: هل أبدأ؟

أومأتُ برأسي فأردف: كما تعلمين فقد زامنتُ الحرب التي إندلعتْ منذ سنين، وقد كنتُ مدركاً لما يحصل على خلافك فقد كنتِ صغيرتاً حينها، حصل ذلك عندما كان عمري ثمانية أعوام أي قبل إنتهاء الحرب بسنتين في إحدى الأيام الشتوية القارسة إستيقظتُ على بكاء والدتي إتجهتُ إلى الغرفة حيث تنام الآن دخلتُ وبعد أن تسائلتُ عن سبب بكائها إحتضنتني بقوة كما علتْ شهقاتها، بكيتُ لبكائها ولم تخبرني عن شئ تلتها خمسة أشهر لم أرى بها والدي قط وكلما حاولتُ السؤال عنه تغضب وتسكتني.. كانتْ تلك الأيام التي حذرتكِ فيها من ذكر أبي أمام أمي خيفة غضبها عليك أتذكرين؟

بالفعل تمكنتُ من تذكر تلك الفترة اللعينة التي فقدتْ فيها والدتي صوابها وتغيرتْ كلياً لإختفاء والدي أشهر عدة عدا الأشهر التي كان فيها مشاركاً في الحرب لذلك قلتُ ولم أتمنى أن يوقف حديثه: أجل.. بالفعل أتذكرها جيداً.

: أمضيتُ تلك الفترة جاهلاً ما يحدث إلى أن أتى ذاك اليوم الذي كنا نلعب فيه بالخارج مع أبناء الجيران دخلتُ لأسئل والدتي كوباً من الماء فوجدتها تحادث رزان جارتنا وصديقتها الأبدية باكيتاً قائلتاً ما لم أستطع سماعه فقالتْ رزان متسائلة فزعه: هل أنتي متأكدة من ذلك؟

أجابتْ أمي بصوت مرتعش: أجل لقد ذهب رغم محاولتي لإقناعه نحن المستبدون هنا.. هذا لا يجوز.. كلا إنه يجرم في حق نفسه لفعله هذا الأمر.

قالتْ رزان في محاولة خرقاء بائسة لتهدئة أمي: إنه خالد الذي تعرفينه بالتأكيد لن يقدم على فعل أشياء كتلك.

قالتْ أمي مندفعتاً تهدم نبل الزوج الذي إجتهدتْ رزان ببنائه: كلا.. لم يكن خالد من ودعني تغير كلياً منذ تجنيده في الجيش ومذ ذلك الحين إختفى خالد الذي أعرفه خلف الطمع وحب المال، هذا كل ما كنتُ أراه في عينيه عند رحيله.

صمتتْ رزان ترمق أمي بنظراتِ الأسى فخرجتُ أنا بدوري بعد أن طال الصمت تسائلتُ كثيراً عن المكان الذي ذهب إليه والدي وتعمدتُ التنصت على تجمعات رجال القرية إلا أن كل ما كان يدور بينهم مبهم لا يُذكر فيه ما أريد وكالعادة يتبادلون الأراء حول الغزو.

: ألم ترى الجريمة الشنعاء التي إقترفها جيشنا؟

: هذا أمر مخجل مذل لنا.. بئساً لذاك الغزو النجس.

: كلا يا صديقي لا ضير من رغبتك بإتساع نفوذك لكن يجب عليهم إلتزام الأخلاق في ذلك.

إنهال الرجل الأخر في نوبة ضحك قال بعدها: بربك يا رجل!.. قل إنك تمازحني أتقصد بهذا أن يقرع الجندي الأجراس أمام أبواب الناس قائلاً "عفواً أحبائي على الإزعاج هل لكم أن تغادرو تاركين خلفكم أرضكم، ماضيكم، مستقبلكم وأرواحكم فقط لرغبتنا في بعض التوسع والزيادة في النفوذ" يا عزيزي إحذر قول هذا مرة أخرى فستكون أضحوكة بينهم قل جهراً بأنك تعزز فكرة الغزو صرا حتاً ولا داعي لتجميلها بشئ لم يستعمله أحد من قبل كقرينة للغزو، ألا وهو الأخلاق.

ضحكتُ كثيراً لذاك الحوار خاصة بعد رؤية خيبة الأمل على صاحب الأخلاق ذاك أياً يكن مرتْ سبعة أشهر أخرى على مغادرة أبي المنزل متمماً بذلك ستاً كاملة عاد وقد شهدتِ عودته وكيف أنه تغير جذرياً عن والدي السابق.. يبدو كمن أصابه الجنون يتحدث مبتسماً حين يكون وحيداً يمسك الوسائد ويمزقا بالسكين يخاف من أشخاص لا يراهم إلا هو أصبح غريباً بحق.

أكملتُ قائلة: وبعد أربع أعوام من مجيئه رزقتْ عائلتنا بفؤاد وبعد أربع أخرى رزقنا برامي وفي ليلة ولادته وصلنا خبر وفاة والدي.

قال زين: وفـــاة!

إبتسمتْ: زين حذاري ها أن تقول أنك نسيتَ موعد وفات والدي.

قال بجدية : وفاة هذا ما سمعناه من الطبيب وهذا أيضاً ما انطلى علينا وصدقناه، كذبة ألقاها على مسامعنا الطبيب رائف مصطنعاً مأساة حزينة إنطبعتْ على وجهه المجعد وقد آمنا بها.

: كيف ذلك؟ لم أفهم شئ مما تقول.

: أعيدي لي ما حصل في تلك الليلة.

: لم يحصل الكثير غير أن والدي خرج الرابعة عصراً مع علمه بأن والدتي ستنجب الليلة إلا أنه احتج بعمل مستعجل سيعود بسرعة منه ثم عند العاشرة والنصف على بكاء رامي الأول في منزلنا ولم يكن والدي قد عاد حينها كنا نمرح بجانب أمي المتعبة وأخي رامي في تلك اللحظة رأيتك تغادر الغرفة بعد أن لاحظتَ رزان تتفقدنا بقلق قبل خروجها لرؤية من يطرق الباب تَبِعتَها بينما تبعتك بدوري ولم ألحظ بأن فؤاد يتبعني أيضاً وقفنا ثلاثتنا نراقب رزان تحدث الطبيب رائف ولمجرد سماعي " لقد توفي خالد " بدأتُ بالبكاء بصوت عالٍ حاولتَ حينها تهدئتي بينما كنتَ تبكي بصمت إلا أن فؤاد صم أذاننا بصراخه كعادةِ الأطفال عند رؤية أخوتهم يبكون حلتْ الضجة في المكان فأخرجتنا رزان بمساعدتك إلى بيتها وأمرتك بالعناية بنا ثم عادتْ لتجد كماً هائلاً من التساؤل من والدتي عن سبب بكائنا أتحفتها رزان بكذبة وقوعي ثم بكاء فؤاد لبكائي كما أخبَرتها بنومنا في منزلها خِشيتَ إزعاجها ثم لا أتذكر الكثير حقاً عدا استيقظنا متورمي الأعين لنجدك ترتدي بدلة سوداء اللون تخبرني بعودتك للتو من مراسم الدفن ثم أخبرتْ رزان والدتي بالحقيقة ليتدافع الجيران على منزلنا لسماعهم صراخ والدتي ثم .. ثم انتهى كل شئ.

: في رأيك لما كُبِتَ الأمر عن أمي؟

قلتُ بسخرية: بالتأكيد فالسبب واضح ذلك لحالتها الصحية فلم تكن بتاتاً جاهزتاً لسماع خبر كهذا بعد ولادتها بمدة قصيرة.

: حسناً ولكنها أصبحتْ فجأتاً جاهزتاً لذلك فجر اليوم التالي وبعد مضي سويعات قليلة وبعد أن دفن مباشرتاً.

صمتُ حينها بينما أردف قائلاً: أتعلمين ما قاله الطبيب لي عندما قلتُ له غاضباً " لما لم تسمح لي برؤية والدي ولما لم تخبر أمي بأمره بماذا ستفيدها تلك الساعات القليلة التي

ستكبتون عنها الخبر خلالها سوى تفويت أخر لحظات لها مع زوجها" أجاب حينها ببرود تام " هل يهمكما تأمل الموتى إلى هذا الحد؟ على أية حال كما ترى لقد تأخر الوقت وهو الآن تحت التراب " أمسكته من ياقة قميصة إلا أني لاحظتُ رجلان ضخمان خلفه قد إستعدا للهجوم لذلك تركته، ربتَ على كتفي قائلاً " فتى مطيع " ثم ذهب، كل ما فعله ذاك الوغد كان لإخفاء والدي عنا متاظهراً برقة قلبه وخوفه على أمي محققاً رغباته بنجاح، لم يرد لنا رؤيته لأن علامات التعذيب تعلو جسده.

فغر فاهي فزعاً بينما امتلأتْ عيناي بالدموع: كيف حصل هذا؟ ومن المسؤول؟

: مذ تلك اللحظة لم أستطع ترك الطبيب رائف وأردتُ منه سماع القصة لذلك رحتُ أتتبعه بملابس رثة لشحاذ كزيّ تنكري، وصلتُ إلى مقهى تعجبتُ من دخول أمثاله من ذوي السمعة المرموقة إليه جلستُ على الطاولة المجاورة بينما جلس هو مع رجل مهندم الثياب يُكتب الغنى على جبينه تحدثى في مواضيع كثيرة تتعلق بالإقتصاد وأشياء غير مهمة إلى أن قال الرجل.

: ماذا عن ذاك الرجل.. أسرت الأمور بخير؟

أجاب الطبيب رائف متنهداً: لنقل بأنها سرت على ما يرام.

: وماذا عن عائلتة ألـم يطالب أحد برؤيته؟

: كلا تدبرتُ الأمر لحسن الحظ أنجبتْ زوجته تلك الليلة وقد تحججتُ بصحتها النفسية والبدنية إلى أن أتممتُ مراسم دفنه.

: أليس لديه أبناء؟ ألـم يطالبو برؤيته؟

: بلى إلا أنهم صغار في السن ويسهل التعامل معهم عدا أبنه الأكبر فهو عنيد ويصعب التخلص منه رغم بلوغه الخامة عشر مؤخراً، ثم استطرد قائلاً ببشاشة: يا رفيق ستتأخر عن مخطوبتك.. لا أظن بأنها ستصدق تضيعك لوقتك مع رجل مسن.

ضحك الرجلان وتصافحا ثم خرج الرجل بينما جلس الطبيب مجدداً شعرتُ بالتوتر وبعض الخوف حينها كدتُ أخرج إلا أن الطبيب رائف جلس قِبالتي في لمح البصر ثم قال ضاحكاً: منذ متى يقصد الشحاذون المقاهي هذا دليل على نمو الإقتصاد في البلاد.

رفع يده ملوح للنادل: فنجان أخر من فضلك

ثم أردف: لا تكفي القبعة لإخفاء شعر ذهبي نادر أنظر حولك يا رجل أترى كم أنت مميز بينهم تبدو كالأمير الغني المتنكر الذي يبحث عن سندريلا لكن للأسف لا تدخل الأخيرة مثل هذه الأماكن.

تعلمين يا ردينة لوهلة ظننتُ بأني قد أخطأتُ الشخص فكيف لذاك اللئيم أن يصبح الأبله الذي أمامي حينها، إلا أنه عاد فجأة كما عهدته قال: تتبعني لتفهم كل شئ عن والدك صحيح؟

قلتُ مندفعاً : أجل.. أجل أخبرني بكل شئ.

: حسناً تبدو مستعداً لمعرفة حقيقة والدك.. أنا الطبيب رائف كنتُ طبيب العائلة في قصر السيد أسامة كان ذلك أول عمل لي ولم أكن لأتركه لولا المؤامرات التي كانتْ تُدبر هناك لم يمس السيد كرامتي بسوء بل كان يبدو لي من أكثر الرجال دماثة في الخلق إلا أنه بعد مرور ثلاث أعوام على عملي هناك بدأتْ محاولة الغزو تلتها خمس أخرى عِشتها سعيداً هناك إلا أن ما اكتشفته بالصدفة ذاك اليوم قد غير حياتي كلياً كنتُ قد تلقيتُ طلباً من السيد حينها

للقدوم إلى غرفة قريبة من جزء القصر المحرم ونسميه هكذا لتشديد أوامر السيد لنا بتوخي الحذر وعدم الإقتراب منه كما أن كل البوابات الموصلة إليه مقفلة على كلٍ قبل دخولي سمعتُ صرختاً متألمة لأمرأة إقتربتُ من الممر الذي يصدر منه الصوت وكلما اقتربتْ أسمع المزيد والمزيد إلى أن عبرتُ من خلال الباب الضخم والذي نسيه أحد المسموح لهم بالدخول مفتوحاً عن طريق الخطأ وما كان يدخله إلا ثلّةٌ من الجيش، كان ممراً ضخم تتفرع منه عشراتُ الغرف أصدقك قولاً كاد أن يغمى عليّ حينها أصوات الأنين البكاء التأوهات أخيراً الصراخ الذي يصم الآذان عدا أصوات سَنِّ السكاكين والسلاسل، رائحة نتنة تشعرك بالإختناق والرغبة بالتقيؤ، ما ينشر الفزع والخوف في كل أنحاء جسدك هي أثار الدماء في كل مكان.. وصماتُ الأيدي على الجدار.. أثار أقدام.. بقع عشوائية تصل أمام إحدى الغرف إلى بركة صغيرة إقتربتُ ببطء لأختلس النظر لأرى ما لم أستطع نسيانه إلى الآن غرفة بيضاء مغمورةُ بالدم العفن على أرضيتها وجدرانها باردة حد الجمود فقد كانتْ تلك الليلة إحدى ليالي كانون الثاني التي يتساقط فيها الثلج بغزارة نساء عُذِّبن بوحشية تختفي ملامحهن وسط حمرة الدماء بترتْ أعضاء بعضهن وتركن لينزفن بينما فُقأة أعين أخريات وتمددتْ جثث هامدة مر على بعضها زمن ليس باليسير لم أحتمل المزيد فتراجعتُ للوراء وقفتُ مذهولاً مما حدث لأسمع إمرأة تقول باكية من الغرفة المجاورة " كلا كلا أرجوك كلا كلا" سمعتُ بعد ذلك صرختاً تقشعر لها الأبدان عقبها رميّ أحدهم ساق يسرى لإمرأة تقيأتُ حينها كما شعرتُ بدوار شديد ركضتُ مترنحاً لأخرج من ذاك الجحيم المستعر، وقفتُ مندهشاً ألهث بقوة عجز دماغي عن تفسير ما رأيته، في الحقيقة أظن بأن الأثر النفسي لرؤية ذلك لا يزال إلى الآن حاولتُ نسيان الأمر وتكملتَ عملي بشكل طبيعي إلا أن الصرخات بدأتْ بالعلو والأمر يصبح علنياً شيئاً فشيئاً تجرأتُ في إحدى الأيام على سؤال السيد عن ما يحدث في الجزء المحرم من القصر أجاب.

: هل يهمك هذا في عملك هنا؟

علمتُ بأنه رفض محترم للأمر فحافظتُ على ماء وجهي وخرجتْ، بعد إقفالي الباب وجدتُ الخادم منحنياً لرجل يرتدي زي عسكرياً قائلاً : من هنا سيادة الجنرال.

تقدم ذاك الرجل عريض المنكبين محمر العينين مهذّب اللحية نحو مكتب السيد وقبل دخوله قال للخادم بإزدراء وهو يرشقني بنظرة إستحقار: لا أريد لأي جرذ منكم الوقوف أمام الباب.

تظاهرتُ بالإبتعاد إلى أن توارى الخادم عن نظري عدتُ حينها لأتمكن من سماع ما يدور في الداخل تمكنتُ أخيراً من سماع الجنرال يقول بصوته الخشن.

: ...بما أن الجنود قد بالغو هناك، كما تعلم يصعب كبح جماحهم فنحن الغزاة تغمرنا النشوة على الدوام.

: لا أهتم.. ليفعلو ما يحلو لهم فسخاء الدولة يجبرني على الرضى.

: كم أتمنى لو كنتُ مكانك تتقاضى شهرياً مبلغاً ضخم فقط من أجل ذاك الجزء اليسير من قصرك.

تحدث أسامة بشموخ وفخر من المفترض أن تكون ذلتاً وإنكساراً لو كان رجلاً حقيقياً

: أتصدق لم أسأل النائب الذي حضر لإبلاغي عن الغاية من ذلك فبمجرد سماعي للمبلغ تسائلتُ عن مكان التوقيع، فهل لك أن تخبرني بحاجتكم الملحّة لقصري؟

: إنه بمثابة مقر قريب للجنود فقصرك يقع في قرية حدودية مع المنطقة الساخنة لا يبعد عنها إلا بمئات الكيلومترات وهذا يسهل عملية نقل المؤن واستلام الغنائم إلا أن الجنود المتعطشين للدماء حولوه إلى أشبه بمركز للتعذيب.. إنها الحرب يا رفيق.

: آهـا.. إذاً هل لي أن أتسائل عن سبب مجيئك اليوم؟

قال الجنرال في توتر: أوه لما أتيت! صحيح.. صحيح لقد أتيتُ لأتسائل إن كنتَ.. كيف أصف الأمر.. هل تتنازل لنا عن الجزء الخلفي من حديقة القصر؟ كما تعلم نحن نحب دفن الأمور مكان ولادتها ولا..

: ضعف المبلغ.

ساد الصمت لبرهة أدركتُ فيها أن الجنرال قد صدم بردة فعل أسامة السريعة والتي أتتْ على طبق من ذهب والتي لم يتوقعها .

: إتفقنا يا رجل فاليتصافح محبو الأموال.

تصافحا في جو مشحون الذي دائماً ما ترافقه الإبتسامة المزيفة على الثغور شعرتُ بموعد رحيل الجنرال يقترب لذلك تأهبتُ للإنطلاق، سمعته قال حينها: تأكد بأنك تخدم وطنك بشدة الآن أيها الشريف.

قلتُ هامساً ولم أتمكن من كبتِ حنقي: ذهبتم لغزو أرض وأمتلاكها فعدتم بنسائهم فاليذهب جنودكم هؤلاء إلى الجحيم.. ولا زال يدعو ذلك المتوحش بالشريف! اللعنة على رجال قد فقدتْ كرامتها ونخوتها!

أسرعتُ بمغادرة المكان إكتشفتُ مع مرور الوقت السبب وراء طلبهم لم تتوقع بتاتاً حاجتهم لتلك الحديقة كانتْ بمثابة مقبرة جماعية ضخمة لمن انتهى بهم المطاف هناك حاولتُ طلب الإستقالة من العمل لكن السيد أسامة لم يسمح لي بحجة معرفتي الكثير عن أسرار العائلة الخرقاء والتي كان الناس يتداول بعضها سراً بالتأكيد لن تتمكن من إغفال جميع البشر عن عملية تهريبك للغنائم البشرية كما قالو، سمعتُ في تلك الأثناء عن شجار

عائلي بين السيد أسامة وابنه الوحيد حازم الذي كان قد تزوج من إمرأة منذ أربع أعوام وعدة أشهر إنفصل عنها فأخذتْ هي بإقناعه بحقيقة حملها منه بينما أتهمها هو بالإفتراء من أجل نقوده لم أكترث للأمر حينها فقد علمتُ بعد سنين عدة بأن الطفل ذكر وأنه يحي بسلام مع والدته أكمل حازم حياته وقد أُعجب بإحدى المعتقلات إسمها نرمين فتزوجها ثم أنجب صهيب ولينا، كما كانتْ نهاية السيد أسامة مأساوية بحق فقد كانتْ على يدي إحدى المعتقلات ظنها عاجزة فأنتفضتْ بإحدى السكاكين القريبة وطعنته كان الأمر سهلاً بالنسبة لها لأن ذاك العجوز الأخرق لم يدخل ذاك الجحيم برفقة حرس قط، لطالما سخر من عزيمتهن فتوفي على أيدي إحداهن، وتسلم بذلك حازم ميراثه من والده وسار على نهجه بل أنه سبقه بأميال فقد حدثتْ مجزرة في القصر راح ضحيتها ألفي إمرأة يوجد بينهن أطفال كما علمتُ بأن إبنه صهيب قد علم عن طريق الخطأ بما يفعله والده وقد كانتْ لينا معه ليصاب الإثنان معاً بمرض نفسي لا علاج له وراحا ضحية الأوهام والتهيؤاتْ لتلحقهم والدتهم بفترة قصيرة لم يكترث حازم بمرض عائلته بتاتاً وقد إستمر فيما بدأه، ما يشعرك بالذهول حقاً كون عدد الجنود الذين شاركو فيها قليل جداً بالنسبة للضحايا هنا تأتي الصدمة يا عزيزي ألا وهي حقيقة كون والدك قائداً لهم ومن قتله بعض من أهالي ذاك الجزء المحتل الذين قررو بعد زمن الإنتقام من والدك بإرسال رسالة مزيفة له تحمل طلباً من السيد حازم بالقدوم إلى القصر إستقبلوه قبل وصوله لإتمام إنتقامهم بتعذيبه بشتى الوسائل.. أسف يا بني ولكن إن جعلتك تره حينها فلم تكن لتتمكن من معرفته حتى، أما عن والدتك فلم أرد لها الخوض في قضايا والبحث عن الجاني وما إلى ذلك وأردتُ لها أن تقبل بوفات زوجها كأي بشر والعيش معكم ومنحكم الحياة السعيدة.

إحتضنتُ رأسي بين ذراعي وملتُ بهما على الطاولة بدأتْ عيناي تدمعان بحرقه عجزتُ عن تصديق كل ما يقال ولكن لا خيار أخر في الجزء المتعلق بوالدي كان الألم يصل حده لم يكن

بذاك اللطف معنا إلا أنه لم يكن يوماً من الأباء العنيفين الحازمين لطالما شعرتُ بأنه يتفادانا لخوفه من مواجتنا لسبب ما لقد أحببته بحق " تباً كيف حصل هذا؟ ولما؟ " تسائلتُ في جوفي المحترق بلهب الألآم.

وقف الطبيب وربتَ على رأسي " أسف لأجلك يا بني " ورحل.

بَقِيتُ يومها هناك أبكي حتى أتى صاحب المقهى ليعتذر عن موعد الإقفال لم أخبر أحداً عن هذه القصة بعدها والآن ما رأيك في الواقع المر الذي يكمن خلف روعة قصرك ؟

في الحقيقة أعجز عن وصف ما أنتابني حينها كانتْ دهشة تفيض فزعاً ممزوجة بالذهول تترأسها الصدمة مشهد ما إن ترسمه مخيلتك حتى تقشعرّ خوفاً لم أرد تصديق ما سَمِعَتْهُ أذناي إلا أنها وللأسف الحقيقة التي وُجِبَ علي إدراكها منذ زمن، ظهرتْ ملامح التوتر بوضوح على زين وأخذ ينقر بسبابته على مسند الأريكة الخشبي ثم قال يتسائل بتردد

: آمم ... تعلمين ما سمعته من القروين مؤخراً هو حقيقة الخدم هناك.. لا أعنيك أيضاً لكن أريد فقط إخبارك عن رؤيتهم لأرواح النساء تظهر بين الفينة والأخرى لتعبيرها عن مدى حزنها.. هه هه خرافات أجل أعلم ولكـ...

رأى بوضوح إمتقاع وجهي واضطرابي عند سماع ما قاله فقال مميلاً برأسه: خرافات صحيح؟

هممتُ بقول الحقيقة إلا أني امتنعتُ عن ذلك في نهاية المطاف، قلتُ بشئ أشبه بالإبتسامة يرتسم على شفتي: آها خرافات بالتأكيد أجل.. أجل بالتأكيد هي كذلك.

ثم وقفتُ منطلقتاً نحو فراشي: سنتحدث في الغد سأنام الآن.

خلدتُ إلى النوم باكيتاً بحرقة وسط سلسلة كوابس لا تنتهي لأستيقظ وأكمل يومي كالمعتاد ما إن دخلتُ باب القصر حتى.

: صباح الخير. إستدرتُ بفزع ناحية الصوت لأرى وجهه الباسم ليُردف: أوه! أسف لإخافتك لم أتعمد ذلك.

: كلا لا داعي للإعتذار..صباح الخير " أستطردتُ قائلة بعد صمتٍ متوتر: ما الذي تفعله هنا في الصباح الباكر ألا يفترض بوقت نومك أن يحين الآن؟

: بلى.. ولكن كنتُ في إنتظارك.

بخجل : أوه أنا؟.. أجل.. أنا أعلم ذلك.. كيف حالك إذاً؟

: بخير في أتم راحتي وسعادتي " إستطرد بقلق: ردينة بشأن البارحة أرد..

: أشش.. سمعتُ ما يكفي عن القصر البارحة.

: حقاً؟!.. ممن؟

: زين.

: واو.. بطل كيف تمكن من قولها لك.

: أجل كان الأمر صعباً جداً كما كان وقعه علي مدمراً.

: هل أنتي مستعدة لمقابلتها بعد معرفتك للحقيقة.

: من؟

: مايا..

: ما بها؟

أمتقع وجهه محاولاً تجنب إكمال ما بدأه: ماذا؟.. ألـم تسأليني قبل قليل "ألـم يحن موعد نومك الآن؟"؟

رمقته بنظرة التساؤل فقد تعجبتُ من القفزة بين الموضوعين أردف دون إجابة مني: حسناً حسناً سأخبرك.. لقد تبادلنا فترات العمل.

أخيراً استوعبتُ ما قاله: هذا جيد بالفعل، ستحظى الآن بحياة طبيعية، نم ليلاً وأعمل نهاراً لكن ألـم تشعر بالخوف منه بعد ليلة البارحة؟

: ربما لم يكن خوفاً ولكنه حذر وترقب لأي حركة مريبة تصدر منه.

: يا إلهي كم بِتُ أرتعب منه.

: سأكون هنا وقت الحاجة.

إبتسمتُ فأستطرد خجلاً: على كلٍ أتيتُ لسؤالك إن كنتِ قد جُبْتِ حديقة القصر كلها أم لا؟

أجبتُ متسرعة: أجل لقد تجولتُ بها.

: أوزرتي الجزء الخلفي للحديقة؟

: كلا.. ومن سَيُدْخِلُنِي إليها وهي مقفلة؟

قال بحماس: بالضبط وهذا ما أود أن أريك أياه سآتي التاسعة لإصطحابك، موافقه؟

قلتُ بسعادة غامرة: موافقه، شكراً لك.. ألتقي بك لاحقاً.

إستوقفني قائلاً : ردينة لا تخبري مايا بشأن الحديقة.

تسائلتْ: لما ؟

: فقط ثقي بي ولا تخبريها.

" أعدك " ثم إنطلقتُ كالعادة نحو غرفة الطبخ أرى في الطريق الكثير من النساء اللواتي على شاكلة من كنّ في غرفة التقطيع إلا أني إعتدتُ على وجودهن ولم أعد أهابهن، إلا أني لاحظتُ فتيات صغار في السن لم أعهد رؤيتهن من قبل يرتدين فساتين بيضاء بالية قد إستمال لونها الثلجي إلى الصّفرة من كثرة الإهمال، ما أعجبني حقاً هو إصطفافهنّ بإنتظام لتنتشل كل واحدتٍ مجموعتاً من الزهور وتمضي بها إلى داخل القصر، ولسبب ما سُلبتْ المشاعر من ملامحنّ فلا أرى فيها سوى الفراغ والكثير الكثير من الدموع كنّ كأجساد دون أرواح، لم أرد شحن نفسي بالمزيد من المواقف السيئة وإتباع وجهتهنّ لذلك إتجهتُ إلى المطبخ بصمتٍ بعد إختفاء سعادتي التي وهبني جواد إياها، دخلتُ لأجدها تغني بصوتها الشجي كعندليب يدندن أجمل تراتيل الصباح على غصن شجرة نضرة " أيتها الفراشة.. رفرفي بعيداً.. بعيداً جداً عن ياسمينتي.. وإلا فسؤقع جناحيك الفاتنتين ...وأنا أراقب صامته"

رددتُ خلفها اللحن دون أن تراني فحالما سمعتْ صوتي شرعتْ في مسح دموعها ثم إبتسمتْ لي كأن شيئاً لم يحدث: أوه ردينة صباح الخير.

بقلق: هل كل شئ على ما يرام؟

: أجل .. أجل بالتأكيد بعض الذكريات لا غير.

: أسفة لأجل ذلك.

: لا داعي، بالمناسبة لقد أتممتُ الكتاب وها هو قد أصبح لك الآن.

أمسكته بحذر: جيد فقد كنتُ متحمستاً لمعرفة ما بداخله.

: لا ترحلي..

رمقتُ مايا بشئ من التعجب: هـآ! ... لا ترحلي؟!.. من؟ أنا ؟

قالتْ بصوتٍ مرتعش والذي كان دليلاً على دموع حبيسة الجفنين: لقد ذِقتُ ذرعاً بدناءت الحياة.

إزداد تعجبي فقلتْ: مايا هل من خطب ما؟ لا أفهم ما ترمين إليه.

: لا فأنا بخير بعض الذكريات اللعينة تستيقظ مجدداً.

هنا وصلتُ ذروة الإستغراب لدي وتراصتْ علاماتُ الإستفهام في عقلي رمقتها متسائلتاً بنظراتي إلا أني لم أحبذ التساؤل فقد فضلتُ إرتياحها لبعض الوقت.. أكملتُ عملي صامته ولم ألحظ مرور الوقت حتى لمحتُ جواد يلوح لي بصمت من النافذة إستأذنتُ مايا وخرجتُ أقْصِدُه.

جواد: هل أنت مستعدة؟

قلتُ شارذه: أجل.. في أتم الإستعداد.

: لما الشروذ إذاً؟

: سأحدثك في هذا لاحقاً، ألا ننطلق؟

تحركنا نروم الحديقة توقفنا أمام حائط طويل يمتد على كلتا جانبي القصر فاصلاً جزء الحديقة الأمامي عن الخلفي، إهتدى إلى مكان الباب وقد إنسدلتْ عليه شتى أنواع النبات دفعه بذراعه بقوة فقد تكفلتْ السنين بإقفاله دون الحاجة إلى قفل ثم ابتعد وقال

: ردينة أولاً .

إبتسمتُ ثم ولجتها مندهشتاً قائله وقد عُلقتْ عيناي بروعة ما أرى: تماماً كما كنتُ أتصور حدائق مايا في قصصها التي تلقها على مسامعي.

قال جواد ضاحكاً بعد أن أقفل الباب: كما هي حديقة قصري عندما كنتُ طفلاً.

ثم أردف بشئ من المرح ينظر إليّ: كما أن الأميرة التي أتخيلها هنا أيضاً.

إبتسمتُ بخجل شديد ليعود نظري إلى الذهول وأنا أتأمل الحديقة، هل تصدقون ما تراه أعينكم أنظرو إلى كبر المكان وإتساعه تلك الورود والزهور منتشرتاً حولنا دون قيود أشجار تغمر الحديقة بأكملها كأنما هي أعمدة تنتصب وسط قاعة قصر لامعة أنواع العصافير الشتى تغرد متمايلتاً على فروع الأشجار تسترق بين الفينة والأخرى النظر إلى أعشاشها لكن ما يلفتُ الأنظار حقاً نصب ضخم فضي لفراشة جميلة يتوسط المكان قد وجدتْ على سطحه الفطريات والنباتات المتسلقه مراحاً هانئاً لها.

تسائلتْ: نصب رائع متقن الصنع لكن.. لما جناح الفراشة مكسور؟

أجاب: لا أعلم .. مذ أتيتُ إلى هنا وهو على هذه الحال .

تجول جواد في المكان ثم جلس تحت ذاك النصب وأخذ يتأمل، جلستُ إلى جواره فلاحظتُ مجموعة من باقات الياسمين الذابلة مصطفة إلى يمين النصب هممتُ بسؤال جواد عنها إلا أنه قال بعد صمت: ردينة.. هل لك أن تحديثيني عما شغل تفكيرك هذا الصباح؟

أعدتُ على مسامعه ما قاتله مايا لي وما كانتْ تزيده تلك الكلمات إلا هماً وشروذاً واستياء.
أشاح بوجهه: تباً! لما آثرتي البقاء؟

: أنتَ على دراية بالسبب.

: كلا.. لا أعذ..

فُتِحَ باب الحديقة لأرى قدميّ في الهواء ثم أجد نفسي جالستاً وسط مكان تملؤه الأشجار والزهور بأنواعها، رمقتُ جواد متعجبتاً حائرتاً أتسائل كيف تمكن من حملي دون أن أشعر وبهذه السرعة الفائقة إلا أنه قد أجاب بوضع سبابته على فمه مشيراً لي بالصمت، سمعتُ حينها بكاء أصبحتُ آلفه مؤخراً، من دخل إلى الحديقة قد كانتْ مايا وأنا أراها الآن جاثيتاً فوق بقايا الياسمين الذابل لترمي باقة يافعة زاهيةُ البياض على من تمكن منهن الزمن كنتُ أراها تبكي بوضوح هناك إلى يمين نصب الفراشة، لطالما تسائلتُ عن إختفاء مايا فجأة والمكان الذي تقصده ولم أصدق لوهلة أنها تأتي للبكاء هنا في مثل هذا المنظر الخلاب، خطر ببالي فجأة " لما تأتي للبكاء هنا دائماً؟ أيعقل أن يكون هذا قبر أحدهم؟ " إنتابني حينها خوف عظيم هائل.. رباه! لَمْ أشعر بمثل هذا الفزع من قبل كل ذلك الخوف سبّبه لي تصور ما تحتَ الأرض التي نحن عليها الآن، إزرقّ وجهي وتمسكتُ بجواد الذي كان متعجباً من الخوف الذي أصابني فجأة، ربما هو هلع ضرب قلب مايا فأصابني أيضاً.. لا أعلم ما انتابني حينها أريد الخروج من هنا وحسب، حاول جواد تهدئتي فأخذ يمسح على شعري بلطف وأمسك يديّ مطمئناً إياي، إلا أن ما زاد الطين بله هو صوت مايا المرتعش المهزوم الذي إمتُولئ بالحزن والحسرة وتقطع بالشهقاتِ من شدة البكاء قائلتاً أحرفاً إخترقتْ أذناي حتى شعرتُ بألم فيهما: لا ترحلي.. لا تبتعدي عني..كنتي تقولين لي دائماً بأنك لن تغادري هذه الدنيا لأجلي أنا فقط..لتكوني بجانبي عندما أحتاجك .. كنتي تدّعين بأنك ستبعدين الأذى عني إلا أنك تسببينه لي الآن.. ياسمين كم أكرهك ..لما لم تبقيّ بجانبي؟.. لما رحلتي؟ أنتي لا تعلمين كم عانيتُ وأعاني وسأعاني بسببك.. لا تجرؤئين على الرد حتى بئساً .. بئساً.

رمتِ الزهور بقوة ثم خرجتْ باكية، لم أفهم ما حصل أمامي الآن رأيتُ فتاة أخرى غير مايا التي أعرفها القوية الهادئة، كانتْ هذه مدمرة قطع قلبها إلى أشلاء، إنْتُزِعت السعادة والمشاعر منها بأنياب العذاب، جوفاء من الداخل لايوجد في قلبها سوى الظلام، منهكتاً

من الآلآم، قد ذاقتْ ذرعاً بسواد هذه الدنيا، رأتْ من الفظائع ما رأتْ حتى إني شعرتُ بأنها جُنّتْ، لازلتُ فاغرتَ الفاه حتى إنتبهتُ إلى نداءات جواد القلقة من إرتعاشتِ جسدي رفعتُ عينيّ نحوه فقال فزعاً: أتبكين؟.. رباه! ما توجب عليك رؤية هذا.

ثم استطرد بقلق أكبر: هل تعين ما حولك؟ عزيزتي تحدثي إلي تحدثي أرجوك..

تمسكتُ بكتفه واتكأتُ عليه في وهن حتى وقفتْ ثم سرتُ ناحيتَ الزهور مترنحه، فقال متعجباً: ردينة ما الذي تنوين فعله؟ إحذري.

إستدرتُ ناحيته ثم قلتُ أضحك كالمجنونة: ألا ترى ما أفعله؟ سأذهب لمنع هذه" أشرتُ على القبر " من الرحيل وترك مايا وحدها.. هه هه .. ألا يرحل من نحب دائماً؟ إذاً نحن سنتبعهم.

شعر جواد بالأسى فاتجه نحوي ورمقني بنظراتِ تفيض أسى وحزن فأمسك بكتفيّ وأخذ يمسح بكفه على رأسي في حركته الدائمة ليطمإنني بها والتي بتُ أحبها قائلاً

: لن يرحل أحد تحبينه يا عزيزتي.. وسيبقى الجميع بجانبك.. أنا هنا لحمايتك.

قلتُ بصوت أشبه بالهمس: ألن يكون هذا كالوعد الذي تَحدثتْ عنه قبل قليل؟

أجاب بهدوء وثقة: كلا يا عزيزتي.. كلا لن يكون.

أحسستُ حينها بمشاعر جياشه ورغبة عارمة في البكاء فأفرغتُ كل ما كان يثقل كاهلي ويعيق راحتي ويشغل تفكيري بكيتُ وبكيتُ حتى شعرتُ براحة لم أعدها منذ دخول القصر.

إبتعدتُ عن جواد لأطلق زفير راحةٍ من أنفي المحمر من كثرة البكاء رمقته باسمه: أنا ممتنة أشكرك فقد ساعدني إفراغ طاقتي لك كثيراً.. أشعر براحة أكبر الآن.

لم يجب فقد تلعثم لسانه ليعجز عن الكلام كان خجلاً أكثر مما توقعتْ وكعادته أخذ يخلل بأصابعه شعره القاتم، قلتُ باسمة: لما لا نتجول في المكان؟

قال بحماس كما لو كان ينتظر مني طلب ذلك: أجل ولما لا؟

تجولنا وكنى نُمضي وقتاً جميلاً هناك حتى قلتُ بدهشة عندما نظرتُ إلى السماء فلاحظتُ تأخر الوقتْ: هيا ألن نخرج؟ لقد تأخر الوقت.

أجاب بتوتر متجهاً نحو الباب: أوه حسناً.. حسناً.

خرجنا وفي تلك اللحظة فقط أدركتُ كمّ الوقت الذي مضى إنها الثالثة تقريباً ودعتُ جواد وانطلقتُ نحو غرفة الطبخ حاملتاً وصاياه بأن أنسى ما حصل وأعود طبيعية، كنتُ خائفتاً من مقابلة مايا خصوصاً بعد علمي بأحزانها التي كانتْ خلف قناع السعادة والرضى اللامتناهية تلك، وضعتُ يدي على المقبض فسمعتُ ما لم أتوقع سماعه مايا تضحك بصدق، ألـم تكن هي من يبكي هناك يا إلهي! ولم ألبث حتى سمعتُ صوت صهيب يحادثها بإحدى النكات فتعيد الضحك قررتُ تركهما إلا أني فضلتُ مشاركتهما تلك اللحظات السعيدة،طرقتُ ثم فتحت الباب باسمة "مرحباً "

تلاشتْ تلك الإبتسامة عن شفتي فقد كانتْ غرفة الطبخ فارغتاً تماماً مايا ليستْ هنا لِتَضْحَكْ، وصهيب لم يكن هناك ليلقي عليها النكات لكن من كان يتحدث هنا قبل قليل لا أعلم ربما هي بعض الذكريات عادتْ إلى الحياة مجدداً كما قالتْ.

لما لا تقولون ذلك بصوت عالٍ أسمعكم الآن تمتمون بها " لقد جُنّتْ " أجل صارحوني بذلك لقد جننتُ صحيح أتعلمون هذا الشعور يماثل ارتطامك بالحائط بعد منحدر، على كلٍ أصبحتُ مدركتاً راضيتاً بهذه الحقيقة إلا أني لا أقوى على قولها جهراً.

إستسلمتْ.. فلا أود سماع صراخ أحدهم مجدداً أو نساء يظهرن من العدم وأخيراً طفلة تغني لأخي لذلك فكرتُ في قرأتِ كتاب مايا ففكرتُ في المكان الأمثل للقراءة.. المكتبة.. كيف نسيتُ أمرها توجهتُ نحوها دخلتُ بهدوء وجلستُ قِبالتَ تلك النافذة التي سحرني جمالها لأمدد الكتاب أمامي وأستعد لقرائته "الجبال المغنية".

" انتهى الياسمين من بستاني سيدتي..

وأخرها كانت بلون الدم...

غريب...

وكأنها تودعك على طريقتها..

غادري ... سيدتي"

هذا ما كتبَ على أولى صفحات الكتاب تكون بذلك الجمل التي تحمسك لقرأته لكن تعجبتُ من عدم وجود إسم للمؤلف أو تاريخ الطباعة أو إسم لدار النشر حتى، تفحصتُ صفحاته الأخيرة لم أجد ما أبحث عنه على أية حال مضيتُ في قرائةِ الكتاب ما بدى لي حتى الآن أنه يتحدث عن فتاة ترى ما لا يراه الناس أعتقد أنها مجنونة إلا أنهم تمكنو من صياغتها بطريقة لبقة ليكون الأمر مثيراً، أميرة لقصر جميل واسع آهـــا كعادة الرويات المبتذلة بالتأكيد هي فاتنة وناجحة في حياتها وهناك أميرها الوسيم الرائع الذي ستتزوجه في نهاية المطاف هه هه يا إلهي كما قلتُ تماماً أوه يال المصيبة!......

رجل مسن! .. من سيتزوجها رجل مسن! .. يال الكارثة .. إنه بستاني قصرهم.

إسمعو....

" كان قلب الاميرة صفاء ينقسم إلى جزئين فأحدهما عند أمير البلاد المجاورة رامز وآخر عند البستاني كريم لقد انفطر قلبها إلا أنها شعرتْ بميله ناحيتَ كريم فقد كانتْ رسائله التي إمتلأتْ بالكلام اللطيف تارتاً والخوف والقلق عليها تارتاً أخرى عندما لا يتمكن من رؤيتها ألقتْ نظرتاً عليها لتجد غرفتها قد إمتلئتْ بها كما كان يرفق لها مع كل رسالة زهرةَ ياسمين جميلة يطمئن في فحواها على أميرته التي أحب تواضعها، جلوسها وحديثها المستمر معه، كما كان يحدثها عن بحثه منذ سنين عن فتاة بنقائها، تشجعتْ صفاء واتخذتْ قرارها بإرسال رسالة إلى الأمير تخبره بين سطورها برفضها له بطريقة لبقة، ثم إنطلقتْ سعيدتاً نحو البستاني كريم تزف له بشرى قبولها بأن تكون زوجته تزوجا وعاشا الحياة السعيدة التي كانا يسعيى ورائها وقد إنتقلا للعيش في قريته التي كانتْ مسقط رأسه وبعد سنين قليلة تعثرتْ الأميرة بالشكوك فسقطتْ في بئر الوساوس، شعرتْ بأن زوجها يتردد على بيت آخر لم تفكر صفاء بالأمر كثيراً فقد قررتْ معرفة من تقاسمها زوجها كعادتِ النساء فانطلقتْ نحو القرية تسأل القرويين عن صاحب ذاك المنزل، إقتربتْ من أحدهم.

: عفواً.

: أوه! أهلاً سيدتي، كيف أساعدك؟

: هل تسمح لي بسؤال؟

: بالطبع تفضلي.

: لمن المنزل الذي بجانب ذاك الجبل.

:أين؟ .. هل هو ذاك؟

: كلا.. ذاك الجبل يا سيدي.

فأجابها: آها، سكنه رجل مسن إلا أنه توفي منذ حوالي أربعة أعوام ولم يسكنه أحدُ منذ ذاك الحين.

همتْ بالذهاب إلا أن الرجل قال : حذاري يا سيدة لا تذهبي ناحيته فقد رأى الكثيرون الرجل المسن المتوفى يلجه.

تجاهلتْ صفاء التحذير ثم همتْ بالذهاب إلا أن الرجل أوقفها مجدداً.

: عفواً سيدتي ألـم تزوري هذه القرية من قبل؟

: كلا هذه المرة الأولى لي.

: لقد علمتُ ذلك فلا قروي هنا لا يرمز للجبل بإسمه ولا سائح يأتي لهذه القرية إلا لرؤيته.

تسائلتْ صفاء: وما إسم الجبل؟ ولما هو مهم إلى هذا الحد؟

قال الرجل ضاحكاً: هه هه.. لا تسمعي هذا من رجل في مثل سني فلربما تؤمنين بخرفي.

: تحدث فإني أراك من أعقل الرجال.

: تسمى هذه القرية بـ " الجبال المغنية" فذاك الجبل عجيب لأنه مرتبط بقصة عجيبة فقبل عشرين عاماً تزوج رجل مسن بإمرأة وسكن معها ذاك الجبل تحديداً ذاك البيت الذي أشرتي إليه وبعد مُضيّ أيام قليلة بعد منتصف الليل علا من الجبل صوت غناء حسن لإمرأة إلا أنه يشعرك بالحزن وضيق في الصدر فالكلمات مرتجلة إلا أنها تحمل من الألم والحزن واليأس ما لا يحتمله قلب بشر كما يتخلل الغناء صوت مرتعش ثم البكاء ثم العودة إلى الصوت الشجي مجدداً تصف فيها مناظر بشعة مظاهر تعذيب لا يتصورها أحد، تضرر الكثير جراء هذا الغناء فلم يحتمله أحد من المقيمين بالقرب من الجبل فمنهم من جن ومنهم من قتل

نفسه ومنهم من أصيب بداء غريب وآخرون ذهبو إلى الجبل يدّعون إيقاف الغناء ولم يعد منهم أحد حتى الآن ولم يتوقف الغناء بعد منتصف الليل حتى اليوم.

شعرتْ صفاء بقشعريرة فزع جمدتْ أواصرها إلا أن شفاهها نطقتْ: لكني مقيمة هنا ولم أسمع ذاك الغناء ولو لمرة.

: بالتأكيد لن تستطيعي سماعه فلا يسمعه إلا القريب من الجبل ومنازلنا هذه بعيدة عنه ولا يصل الصوت إلينا.

تنهدتْ براحة، فلاحظ الرجل خوفها فقال: أسف يا سيدة فقد أرعبتك ما كان يجب علي قول هذا لك.

إبتسمتْ صفاء وقالتْ : كلا يا سيدي فمن يعيش في مكان لزم عليه تعلم كل ما يخصه، على كلٍ آسفة لإضاعة وقتك وشكراً لك يجب علي الذهاب فقد تأخرتْ.

: على الرحب والسعة.

ثم عادتْ إلى منزلها لتجد زوجها ينتظرها قلقاً على أحر من الجمر.

كريم: حمداً لله، أين كنتِ؟ قلقتُ عليك كثيراً.

صفاء: تأخرتَ في العودة فقلتُ لنفسي لما لا أخرج إلى أهل القرية وأتحدث معهم فأنتَ لا تسمح لي بالخروج.

: لكن يا عزيزتي ألم أحذرك من أهل هذه القرية فهم أشد الناس شراً وخداعاً.

: لا أظن ذلك فقد قابلتُ أحدهم وقد كان لطيفاً للغاية.

قال بحنق مكبوت يشوبه الخوف: بما حدثك أخبريني؟

: لم يكن بالأمر الجلل، القليل عن هذا وذاك.

إطمأن كريم لكنه عاد إلى تحذيرها من أهل القرية، في صباح اليوم التالي وبعد أن خرج قررتْ صفاء الخروج إلى القرية لكن هذه المرة للتسلية وحسب، جلستْ بين النساء تُضحكهن بمحاولتها الطبخ مثلهن ويضحكنها بتقليدها إستمرتْ الأجواء الحميمية البسيطة التي لم تعشها إبنة الخدم والحشم من قبل قط واستمر هذا حتى الغسق فقالتْ إحداهن: إنك حسناء فاتنة ذات روح طيبة ألا تخافين المبيت في هذا المنزل وحدك؟

قالتْ أخرى: لهذا السبب تبقى حبيسة المنزل كي لا يراها رجالنا هه هه.. أليس كذلك؟

إبتسمتْ صفاء ببلاهة قائلة: ولكني متزوجة من كريم هو إبن القرية البستاني " أكملتْ بخجل" ستقول إحداكن أنه أكبر بعشرين عاماً ولكن مشاعرنا متبادلة كما أنه لطيف و....

إستمرتْ بالحديث عنه بإنتشاء وسط نظرات الدهشة والعيون المتسعة من القرويات ثم تعجبنّ حين سكتتْ فجأة وأخذتْ ترنو مبتسمتاً نحو الأفق ثم قالتْ صفاء مشيرتاً نحو كريم: ها هو زوجي ذا الذي حدثتكم عنه، تعال يا كريم تعال.

إنفض الجميع من حولها و..."

: عفواً يا آنسة.

رفعتُ رأسي وقد بدى الغضب واضحاً على وجهي لمقاطعتي في ذلك الجزء المشوّق، ذهلتُ لرؤية تلك المرأة ذات الخمسين عاماً والتي أظن بأنها أمينة المكتبة تقف على رأسي لتقول

:أنتي الآنسة ردينة صحيح؟

أجبتْ: آها.

جلستْ بجانبي في صمتْ، تعجبتُ من فعلها فإذا لم تكن محملتاً بالحديث لما تجلس بجانبي مقاطعتاً قرائتي؟ إلا أنها قالتْ متفهمتاً نظراتي التي تحثها على الكلام: ما الذي يعجبك في هذا القصر؟

: أنا أحبه ففيه وجدتُ من أصبحو أثمن ما في حياتي.

: ألا تجدينه غريباً؟

: أجل ولكن فات الأوآن على التفكير في التراجع.

وقفتْ فجأتاً لتعيد ما فعلته في المرة السابقة ألا وهو وقوفها أمام النافذة الواسعة وإشارتها لي بالقدوم: كيف ترين الحديقة؟

تقدمتُ وأنا أقول: الحديقة هي أكثر الآماكن جمالاً في القصر لـ..

توقفتُ وأنا أرى أولئك الفتيات وهنّ يقطفن الزهور بإنتظام ولأول مرة أتمكن من رؤيتهنّ هنا، سرى الرعب في أنحاء جسدي وهنّ يرفعن أنظارهنّ ناحيتي فجأه، رمقتُ الأمينة بنظرات التعجب وقلتْ: أتقصدين من يجمعن الزهور؟

إنقلبتْ نظراتها المسنّة القاسية إلى نظرات الشفقة والإستسلام لتضع أطراف أصابعها على فمها بتعجب: ماذا يحملن؟

أعدتُ النظر إلى النافذة لأدقق في أنواع الزهور: أوه! كيف لم ألحظ منذ البداية إنهنّ يحملن زهور الياسمين.

عدتُ بنظري إلى المسنّة ولكن لم أجدها إختفتْ بلمح البصر، جلستُ متجاهلتاً ما حصل متعجبتاً من ظهورها فجأة لتسأل هذا السؤال الغريب، عدلتُ الكتاب لأعود إلى القراءه.

" إنفض الجميع من حولها وتركن القدور والصحون ورحن يختبئن في منازلهنّ لم تلبث متعجبة من فعلهّن حتى انطلقتْ نحو كريم سعيدتاً بعودته: مرحبـ..

نهرها قائلا : كم مرة قلتُ لك فيها ألا تصاحبي هؤلاء الخسيسات ها؟

قالتْ بحزن: أسفة فقد شعرتُ بالوحدة.

لانتْ ملامحه: أسف يا عزيزتي فلدي بعض الأعمال المهمة لولا ها لما كنتُ أفارق المنزل.

إبتسما ثم دخلا المنزل يملئ قلب أحدهم الرضى عن الآخر إلا أن صفاء تبيت نية الذهاب إلى ذاك المنزل في الغد، أشرقتْ الشمس على تلك القرية فإستيقظتْ صفاء لتجد كريم قد غادر المنزل ليهتم بأعماله الأخرى التي ما تراها صفاء إلا زوجة أخرى عقدتْ العزم على رحلة المشقة تلك لتقبض على زوجها متلبساً فيضطر لترك الأخرى والعيش مع صفاء وحدها إنطلقتْ وفي متاعها تلك الأحلام الوردية تواسي بها وحشتها قرب قمة الجبل السحيق، خُيّل لها أن الوقت قد إقترب من منتصف الليل وندمتْ على القدوم لأن الوقت تأخر وبالتأكيد زوجها قد رجع إلى المنزل ليجده فارغاً فيظن فيها السوء لكن قد فات الأوآن عن التراجع ويجب عليها إكتشاف الزوجة الأخرى.. مهلاً!.. أهذا هو السبب الحقيقي حقاً أو.. إعترفتْ في جوفها أنه لم يكن هذا هو السبب الحقيقي الذي عانتْ من أجله صفاء للقدوم إلى هنا بل هو سبب خفي لا تعلم مصدره.. روحها هي من دفعها للقدوم ربما كي تثبت إما جنون أهل القرية كلهم وإما جنونها هي.

أخيراً!

تأكدتْ بنفسها وها هو ذا صوت المرأة الشجي يصدح في أنحاء الجبل وقد كان الصوت عالياً فهي قد بدأتْ بتسلقه بالفعل، شعرتْ صفاء بألم فضيع إنسكبتْ الدموع من عينيها كانتْ الكلمات تخترق قلبها كالسهام لتتقدم صفاء بخطى مترنحة نحو الكوخ الصغير المندس بين الأشجار والذي بدا يلوح لها من بعيد، خيّل لها أنها ترى المرأة التي تغني في نافذته إقربتْ ثم إقتربتْ لـتـ...."

شعرتُ بأحدهم يقف بجانبي تجاهلتها فقد خطر ببالي أنها أمينة المكتبة ترغب بطرح المزيد من الأسئلة المريبة، إلا أني تفاجأتُ بمايا تقول: كما ظننتْ أنتي هنا، بحثتُ عنك كثيراً لولا تذكري للمكتبة لما زلتُ أجوب القصر الآن.

أجبتْ: فظلتُ الجلوس في مكان هادئ لأقرأ هذا الكتاب.

قالتْ بحماس الأطفال: أوه هل قرأتِ منه؟ أليس رائعاً؟

: في الحقيقة هو مرعب بعض الشئ.

: مرعب؟!

أجبتْ: ربما ليس لأشخاص مثلك ولكن أمثالي يرونه مرعباً.

قالتْ مايا ضاحكة: هه هه.. هل ترعبك قصص الأميرات والقصور والفرسان الوسماء هه هه.. ألهذا لا تحبينها؟

قلتُ غاضبة وقد إحمرتْ وجنتاي: ألا نعد العشاء؟

في الحقيقة إخترتُ نسيان ما حصل حينها فإن لم ترد هي إخباري فلا داعي لأعلم إذاً.

أكتمل اليوم كالعادة لأعود إلى المنزل وأنا أرى حزن مايا بوضوح، نمتُ بمجرد دخولي ولم آبه لتساؤلات زين عن القصر، مضى يومان على هذه الحال ولم يحدث فيهما ما يذكر عدى حزن مايا الذي يزداد يوماً عن يوم، والأمينة المنّسة التي تكرر لي نفس المشهد عند دخولي إلى المكتبة، في اليوم الثالث جلستُ بعد الظهيرة تحت شجرة الصنوبر أنتظر قدوم مايا بالحلوى فإذا بإحدى الفتيات ذوات الفساتين البيض الباليات تمر من أمامي حاملتاً الياسمين لسبب ما شعرتُ بأن تلك الملامح مألوفة بالنسبة لي، رأيتُ هذه الفتاة مسبقاً إلا أني لا أتذكر أين، وقفتْ تبكي حاضنتاً زهور الياسمين بقوة لترشُقني بنظراتها وتقترب مني فجأة وتدقق بملامحي لتقول: عجيب! ألم أفعل هذا بك من قبل؟

لم أجد وقتاً للتساؤل لأراها ترمي زهورها عليّ واحدتاً واحدة وقد كانتْ تعد مع كل زهره واحد..

إثنان..

.....

ستة عشر ...

سبعة عشر....

توقفتْ رغم أن زهورها لم تنتهي بعد، ثم إبتسمتْ إبتساماتاً كانتْ مرعبتاً بالنسبة، إنحنتْ أمامي لتمتم شفتاها بما لم أستطع سماعه.

: إبتعدي عنها.

إتجهتْ أنظاري ناحية الصوت لأرى جواد يلهث مردداً " إبتعدي عنها " بغضب ينهر بها تلك الفتاة ذات الزهور لتجيب الأخيرة طلبه مبتسمتاً بشماتة أجهل سببها، إتجه جواد

ناحيتي ليبعد تلك الزهور عني بسرعة ويرميها بعيداً متجاهلاً تساؤلي إلى أن انتهى وجلس بجانبي بهدوء ليقول شارذ الذهن: سبعة عشر.

غرقتُ في بحر التساؤل فقلتْ: جواد.. ما الذي حصل للتو؟

قال بأسى: لن أخسر المزيد بنفس الطريقة.

عقدتُ حاجبي في إسغراب قائلة: تخسر المزيد؟.. ما الذي تـ...

قاطعتني مايا وهي قادمة تحمل الحلوى: جواد هنا أيضاً!.. سيكون الحديث أجمل إذاً فبزيـا..لما كل هذا التجهم؟ ما الأمر؟

كدتُ أنطق لولا صوت ارتطام الحلوى بالأرض لأرى مايا شاحبتاً خائفة ترنو حيث الياسمين التي رماها جواد، ما إن وقع بصري عليها حتى رددتُ في عدم تصديق: حمراء..

تحول لونها إلى الأحمر أنّى لياسمينة بيضاء أن يصبح لونها أحمراً فجأة، قطعتْ تفكيري مايا التي تبتعد في جزع قائلة: كلا .. كلا .. ليس مجدداً.

ثم اختفتْ، فهم جواد نظراتي التي تأمره بالتفسير حالاً فقال: ألـم تقولي بأن زين قد أخبرك بحقيقة القصر؟

: أجل.. عن كونه مُعْتَقَلاً للنساء؟.

: آهـآ.. لم يكن بالمعتقل العادي بل كان أشبة بمقر لتعذيب النساء فقدن فيه آلاف منهن حياتهنّ هنا خلال فترة الغزو، وببساطه من كانتْ تموت منهنّ تُتَرَك في مكانها لأجل غير مسمى أمام مرئى كل النساء اللواتي يعذّبنَ في الغرفة معها، لذلك تجمعتْ عشرات الفتيات بأثوابهنّ البيضاء ليجمعن زهور الياسمين من الحديقة ويرمينها على أجساد الميتاة منهن وقد كانتْ عادتهنّ رمي الزهور بعدد يساوي عمر الميته وينحنين أمامها إنحنائة بسيطة يرددن

فيها بعض الأدعية لها، بمجرد أن توضع الزهرة على أجسادهنّ حتى يتحول بياضها الناصع إلى حمرة جهنمية فاقعه بلون دمهنّ الذي لطخ الأرجاء.

شعرتُ بألم في رأسي وقد أتى هذا المشهد أمام عينيّ لم يكن تخيلاً بل تذكراً له فقد رأيته إلا أني لا أتذكر متى أو أين، تجاهلتُ جواد تماماً ووقفتُ في حركة لا إرادية أتجه إلى مكان ما، لم أُدْرِك وجهتي فتركتُ إلى جسدي العنان وحرية الذهاب حيث أراد، علمتُ أخيراً بأنني أرغب في إتّباع الفتيات ومعرفة المكان الذي يذهبنَ إليه ..لكن لما أحمل زهور الياسمين وأحتضنها وسط بكائي؟ أو بالأحرى لما أبكي أصلاً؟ .. ها أنا ذا أعبر الممر المؤدي إلى الجزء الأيمن للقصر أو سأقول هنا الجزء المحرم من القصر سابقاً .. أدخل إحدى الغرف الضخمة لتقودني قدماي إلى نقطة معينة فيها .. تحت النافذة في إحدى الزوايا شاهدتُ البستاني المسن يبتعد عن فتاة قد إستلقتْ على الأرض دون حراك بعد أن صرختْ بإستماته

: ساقي .. ساقي.. آه.

وقد كانتْ حينها ساقها اليسرى منفصلتاً عن الجسد، كان صوتها مألوفاً بالنسبة لي بدرجة كبيرة إلا أني لم أجهد نفسي في التفكير بصاحبته فقد إنتقل بصري إلى فتاة شجاعة صرختْ في المسن قائلة

: هذا مريع لا يمكن لبشر فعلها أنتَ متوحش!

ليقول مزمجراً بصوته الكريه: أوتجرؤين؟

أسدلتُ جفنيّ من بشاعة المنظر بعد شروعه في إقتلاع عينيها الرماديتان كعيني مايـ... إنه لون عينيها ذاته ولون شعرها وإستدارة وجهـ..قاطعتني إحداهنّ مجدداً بصراخها

: أيها الـ..#.. الـ..#.. كيف تجرؤ على فعل هذا .. أختي! عزيزتي!..لا..

أختي؟! أهذه ياسمين؟ لكن... أنا لم أرى ياسمين يوماً فكيف أجزم الآن بأنها هي؟.. أو بالأحرى .. من هي ياسمين أصلاً؟ صرخ البستاني بفمه المتهالك ملوحاً بالسكين أمامها في تهديد: صه .. لو لم تكوني زوجتي لكنتِ ميتتاً الآن.

صرختْ بوجهه بقوة أكبر: لا تُعد هذا على مسامعي مجدداً أنا لستُ زوجتك ولن أكون يوماً، ولا تهدد أبداً بل إفعلها فلن يكون موتي إلا راحتاً لي.

إبتسم المسن لتظهر أسنانه البالية لتزيد من إشمئزاز مظهره: كلا يا عزيزتي لن أفعل فراحتك هنا قرب زوجك.

إكتفتْ بهدم مشاعره بنظرة ملؤها السخرية والإستحقار بينما سار مغادراً المكان وقد إحمر وجهه حنقاً، عاد الهدوء المقيتْ ليعود نظري معه إلى تلك الفتاة الممددة الفاقدة لوعيها وساقها اليسرى معاً فأجد إحدى الفتيات ذوات الفساتين البيض ترمي عليها زهور الياسمين لتسقط برقة فوق جسدها وما إن تلامس بقع الدم حتى يبتعد بياضها الناصع ليصبح الأحمر البغيض بينما أغرقتْ عيناي بالدموع كانتْ أذناي تستمع إلى حوار ياسمين مع إحدى الفتيات.

ياسمين بهمس: ألديك قطعة قماش؟

الفتاة: ولما تسئلين؟

: سأحاول إيقاف نزيفها.

: بربك إنها ميتة لا محاله، ألا ترين الياسمين الأحمر فوق جسدها؟

: أرآه ولكن لازلتُ مصرة قد تنجو، هاتها.

إقربتْ ياسمين من الفتاة..

....

: هكذا، أترين؟ لقد نجح الأمر.

: أوه بالفعل تبدو محكمة، أهي حية؟

: لحظة.

.....

.....

: أجل إنها حية.

أصبح الضوء ساطعاً فجأة فلم أعد أستطيع الرؤية بشكل واضح إلا أني تمكنتُ أخيراً من سماع صوت البستاني يعود: ....لعينة خذي.

علتْ تأوهات ياسمين وبكاء مايا.. مايا؟! .. ما الذي تفعله هناك؟ تمكنتُ أخيراً من فتح عينيّ فإذا بي أقف وسط غرفة لم أطأها من قبل إلا أني تأكدتُ بأنها إحدى غرف الخدم الإحتياطية حانتْ مني إلتفاتة نحو السرير لأرى على سطحه كتاب ما، إقتربتُ منه لأتأكد بأنه الكتاب الذي تقرأه مايا الآن لأطرح على نفسي أسئلة عده .. هل أنا في غرفة مايا؟ وما الذي جاء بي إلى هنا؟ لمحتُ بجانب الكتاب ظرفاً لرسالة حملته فإذا بي أقرأ " من البستاني عاشق الياسمين كريم إلى آنستي زهرة الياسمين ردينة " .... أعدتُ قرائة تلك الكلمات مراراً وتكراراً لأتأكد من صحتها، أأصدق الآن بأن رسالة لي من البستاني العجوز تتمدد على سرير مايا؟ قبل كل ذلك البستاني أأسمه كريم هو الآخر؟ أين سمعتُ الإسم من قبل على أية حال؟ .. لا أتذكر .. شرعتُ في فظ الظرف لأقرأ ما في الرسالة تبدو لي كسابقتها يملؤها المديح وحديثه عن المشاقّ التي واجهها ليجدني، أعدتُ الرسالة في الظرف

لأتجول بعيني في أرجاء الغرفة لأجدها صغيرة الحجم يختبئ في إحدى زواياها سرير أبيض اللون عن يمينه نافذة كبيرة تنسدل عليها ستائر بنية باهته، مكتب صغير وكرسي أخيراً خزانة ملابس صـ.. مهلاً أهذه رسالة أخرى تقدمة نحو الظرف العالق بين بابيّ الخزانة لألتقطه فأقرأ " من البستاني عاشق الياسمين كريم إلى آنستي زهرة الياسمين ردينة " اللعنة!.. هل هذا هذيان منيّ أم هذه الرسائل حقيقية؟ شعور غريب دفعني إلى فتح الخزانة لينفجر منها سيل الرسائل الموقعة بإسمه والموجهة لي إنحنيتُ لأختار بعض منها عشوائياً لأقرأها والصدمة تعلو محيايّ من كَمِّهَا الهائل، نفس الكلمات تتردد داخلها إلا أني لاحظتُ خاتمة إحداها تقول..

" إنتهى الياسمين من بستاني سيدتي..

وأخرها كانت بلون الدم...

غريب!...

وكأنما تودعك على طريقتها..

غادري ... آنستي "

أعدتُ النظر إلى الخزانة فإذا بي أرى عدداً كبيراً من أزهار الياسمين المتيبسة التي مرّ زمن طويل على بقائها تمتمتْ: بالتأكيد أرفقها مع رسائله.

إستأنفتُ القراءة لأتوقف مجدداً على إحدى الكلمات تقول " عزيزتي وزوجتي " قلتُ بتعجب وصوت مسموع: من؟! .. أنا؟

سمعتُ حينها شهقة خلفي فاستدرتُ لأجد مايا تنتصب أمام الباب تعلو محياها دهشة عظيمة، تسائلتْ: هل هذه غرفتك؟

قالتْ متلعثمة في الإجابه: هاه.. أجل.. غرفتي ولكن.. هي غرفة الخدم..و..

قلتُ ملوحتاً بإحدى الرسائل: ما الذي تفعله هذه هنا؟

أنذرني حاجباها المقوستان وفمها المجعد بطفولة ولمعتُ الدموع في عينيها بعاصفة من البكاء فقلتُ بسرعة في محاولة لتهدئتها: لا لا لا داعي للبكاء تحدثي فأنا لستُ بغاضبة.

هزتْ رأسها بنفي كمن يقول " لا أستطيع " فأردفتُ بمرح: حسناً يا صغيرتي.. أأخذ أنا دور الأم وأنتي أكبر مني سناً؟ لا يهمني الأمر على أية حال، أيوجد المزيد من الحلوى أرغب ببعضها؟

أجابتْ أخيراً بعد تماسكها: أجل يوجد المزيد.

توجهنا نحو المطبخ وفي الطريق كنتُ أفكر بالرسائل أجزمتُ الآن أن مايا تحاول إبعادي بشتى الطرق عن المسن ربما هناك ما تريد إخفائه عني وهو سيتسبب بكشفه، أو ربما تحاول حمايتي منه، جلسنى على طاولة المطبخ نتناول كعكة التفاح الشهية مع فنجان القهوة الساخن نستمع إلى قطرات المطر وحفيف الأشجار ونرى من النافذة الزهور المبتلة منتعشتاً منتشيتاً بالمياه التي تداعب بتلاتها، دخل صهيب على ضحكاتنا: هاه! أيريد أحدكم نكته كما أريد أنا المزيد من الحلوى؟ .. إيي الجو بارد هنا، ماذا؟ أغلقو النافذة.

قلتُ بغضب مصطنع: كلا أنا من قام بفتحها ولن يغلقها أحد، أحب هذه الأجواء.

سكب صهيب له فنجان من القهوة الساخنة وإتجه إلى إحدى الكراسي ليجلس: أوتحبها مايا؟

إبتسمتْ مايا بخجل: ما تحبه ردينة أحبه أنا أيضاً.

جلس وقال وسط شروده في النافذة: وما تحبه مايا أحبه أنا أيضاً.

إبتسمتُ أنا بينما إدعتْ مايا تقطيع الكعكة بخجل ملؤه التوتر، لم نلبث حتى إكتمل الرباعي بدخول أستاذ البرود متجهماً وهو ينفض ملابسه المبتلة: بئساً لقد إبتلتْ بالكامل.. أوه! الجميع هنا؟

مايا: جواد يال المصادفة تعال واجلس.

جلس قائلاً: في الحقيقة شعرتُ بالجوع فذهبتُ إلى غرفة الخضار فوجدتُ سلال الفواكه فارغة قلتُ لنفسي لعل مايا حضرتْ إحدى كعكاتها اللذيذة.

قال صهيب ضاحكاً: أوتعلم يا رجل؟ ذكرتني قصتك هذه بإحدى النكات الرائعة كـ..

قاطعه جواد: لاحقاً لاحقاً لا أريد سماع المزيد.. الرحمه!

ضحك الجميع وتبادلنا أطراف الحديث في ألفة ومحبه، شعرتُ حينها بسعادة غامرة كادتْ عيناي أن تدمع فرحاً إلا أني قررتُ أن تكون هذه الذكرى خالياً من الدموع، أحسستُ بأن حياتي عادتْ لتكون مثالية من جديد، ما أبسط الإنسان فهو يرى الدنيا بين يديه فقط.. بإجتماع من يحبهم حوله سعداء تغمر قلوبهم الراحة والإطمئنان، وكم أتمنى أن يدوم هذا الحال ويتوقف الزمن عند هذه اللحظاتْ، إستمر حديثنا وشرعنا أنا ومايا في تحضير العشاء وأخذ صهيب يقلد نظرات مايا للطعام وسط إحمرار وجهها حنقاً وضحكاتنا أنا وجواد، أخيراً تناولنا العشاء معاً وكانتْ هذه أول مرة لنا حيث غمر الجميع شعوراً عائلياً فريداً لا يشعر به الفرد إلا بتاوله لطعام مُعد بالحب وجلوسه في مكان لا يوجد به إلا الحب وقلوب لا يملؤها إلا الطمأنينه،تمنيتُ لو طال الوقتُ قليلاً ولكن ها هو ذا جواد يعتذر للذهاب فيلحقه صهيب ولم يتبقى إلا كلانا، وقفتُ أمام الباب أستعد للخروج حال سماع الساعة قلتُ محاولتاً طرد الأحزان التي إستيقظتْ بعد أن غفتِ السعادة: كان اليوم جميلاً صحيح؟

كانتْ مايا تقف بجانبي شاردة الذهن: آها.. جميل للغاية منذ مدة لم أشعر بهذه السعادة.

تأملتُ تلك السماء التي طلاها السواد كلياً لولا ضوء القمر الذي يَهَبُكَ شعوراً صافي بالنقاء تناثرتْ تلك اللألئ على سطحها لتضاعف جمالها ثم قلتُ عازمتاً إنهاء الأمر.

:ما رأيك في صديقان غريبان يضحكان معاً ولا يبكيان معاً، أَوَلاَ ينافي هذا الصداقة التي يزعمانها؟

رمقتني مايا بحزن: ربما توجب عليهما ذلك فقد يؤدي إثقال كاهل أحدهما بأحزان الأخر إلى إنقطاع صداقتهما.

قلتُ بشئ من الغضب: لا يقال للمرء صديق إلا إذ كان قلبه للأخر كالرمال المتحركة يبتلع أحزانه ويطيب خاطره.

عمتْ حينها دندنات الساعة أرجاء المكان وسط نظرات متأسفة من مايا جلستُ على عتبة الباب وسحبتها معي للجلوس ثم قلتْ: لن أنام وهي لا تزال حبيستَ صدرك.

قالتْ: أخبرتك بشأن عائلتي سلفاً لكني تجاهلتُ الكثير من الأمور المهمة، عِشتُ في قرية ملؤها الود أقطن في منزل دافئ يفيض سعادة أم رائعة وحدها إبتسامتها تشعرك بزهاء الدنيا ونعيمها أب يناضل من أجل راحة أنفسنا وإطمئنانها يتفهم أحزاننا دون الحديث عنها أخيراً أختُ حنون أجدها في عثرات الدنيا تهوّن علي مصاعبها إسمها ياسمين.

إمتقع وجهي فقد أدركتُ من تكون تلك التي كانتْ ترثيها في الحديقة وتلك التي خطر ببالي فجأة أنها ياسمين قبل أن أدرك أنها أختها الآن، إلا أن مايا فسرتْ ذلك بـ: أسفة لم أخبرك من قبل بأمر أختي ياسمين، إنها تكبرني بثلاثة سنين.

: كلا كلا لا داعي للأسف بالتأكيد أتفهم سببك.

أكملتْ: كما أخبرتني جدتي فقد كان مرض والدتي بسبب الغزو فقد كانا والدي يعيشان بالقرب من المنطقة الحدودية مع دولتكم فرأتْ والدتي ما رأتْ من الأهوال والمناظر البشعة فأخذتْ التخيلاتُ والتهيؤاتْ تملئ عقلها شيئاً فشيئاً فإنتقلا للعيش في أبعد نقطة عن الحرب داخل بلادنا، كان عمر ياسمين حينها ثلاث سنوات وأما أنا فقد أنجبتني والدتي في أول يوم إنتقلنا فيه حسب ما قاله لي والدي أن مجيئي قد زامن عيد إستقلال دولتكم الحادي والسبعون فقد إستغل والدي تلك الأيام الثلاث الهادئة للإنتقال فقد إنسحب جيشكم حينها لبضع كيلو مترات لمنحهم الكثير من الجنود عطلة عيد الإستقلال.. إلا أن مرض أمي لم يزل يطاردها حتى بعد إنتقالها بل زاد تعمقاً بها وكثرتْ نوباتها في تلك الفترة، حتى إنها كانتْ تسبب الكثير من الأذى لنفسها كما حاولتْ ذات مرة خنق ياسمين لولا حذر والدي ووجوده الدائم بجانبها فأبعد ياسمين عنها لتلتقط تلك الطفلة أنفاسها التي كادتْ أن تكون الأخيرة، سبب ذاك المرض لها الكثير من الألم والإنهيارات العصبية المتتالية لكنها كافحتْ وكافحتْ لتقضي معي السنوات الستة الأولى من حياتي ثم تقتل والدي في إحدى نوباتها وتوفيتْ هي في نفس اليوم أمام عينيّ أما ياسمين فقد كانتْ محظوظة كفاية لمغادتها المنزل مع جدتي يومها للإعتناء بأمور المزرعة حصل ما حصل في تلك الأيام من بكاء وصراخ وقلّة الأكل والنوم وتخطينا هذه المرحلة البائسة من حياتنا معاً جنباً إلى جنب أنا وياسمين أمضينا سنين عدة وكبرنا معاً لا أرى لي قدوتاً في هذه الدنيا سواها ولا أنام وأصبّح على شئ كما على محياها وصوتها إزداد تعلقي بها وبشدة فهي الوحيدة المتبقية من عائلتي إلا أن حياتنا إنقلبتْ رأساً على عقب عندما أصبح الغزو اللعين على مشارف قريتنا وبتنا نراه يلوح لنا متعطشاً لدمائنا أمضينا تلك الفترة متنقلين من مكان إلى مكان خائفين مرتعبين وهذه حقيقة أخرى لا تعرفينها عني فأنا من ذلك الجزء المحتل، أياً يكن.. كانتْ تلك الأيام سوداء بشكل لايصدق وظننا أن أيامنا تلك على وشك الإنتهاء مع إقتراب إنتهاء

الحرب إلا أنهم طلبو تجنيد النساء كممرضات للجيش في محاولتهم الدفاع عن وطنهم لأخر رمق أخذونا ودون أدنى مبالغة رمونا في ساحة الحرب دون إعلامنا بمهماتنا فوجدَنا جيشكم لقمتاً سائغتاً فأخذونا كأسرى، ظننتُ في بادئ الأمر أن سجننا سيكون فظيعاً منهاراً تغمره الحشرات إلا أننا صدمنا عندما رأينا قصراً فاخراً ينتظرنا ومن أول خطوت لنا هنا أدركنا بأننا وقعنا في فخ المظاهر فقد إمتُلئ المكان بالدم في لحظات وقـ....

توقفتْ مايا عن الحديث لتتواصل الدموع والشهقات حاولتُ تهدئتها: لا داعي لأن تكملي إن كان ذلك صعباً عليك.

تمتمتْ بجنون: ..وقد قتلنّ بشتى الوسائل كان ذلك فظيعاً! فظيعاً لدرجة أنه.. أنه ..كلا لقد جنّ الجميع كلا ..لا أريد التذكر.. أجل لقد كان ..كان مريعاً..

من كان سيري منكم وجهها حينها لركض ما أستطاعتْ قدماه فقد إزرقّ محياها وإحمرّتْ عيناها وفاضتْ ملامحها رعباً ثم وقفتْ لتغادر صارختاً مشيرتاً لمكان ما تردد: ها هو ذا قد أتى.. ها هو ذا.

حتى تلاشى صوتها في الأفق إستدرتُ إلى الناحية التي كانتْ تشير إليها فإذا بي أرى ظلاً طويلاً لرجل يقترب، خانتني قدماي مجدداً ولم أستطع التحرك فأغمضتُ عيناي أستمع إلى خطواته تتقدم ناحيتي حتى توقفتْ أمامي تماماً.

: ما هذا؟.. أتنتظرين أحداً؟

فتحتُ عيناي ليرتخي تشنجي أخيراً ثم قلتْ: ها أنت ترعبني مجدداً.

في الحقيقة صِرتُ أشعر بأمان وراحة لمجرد كونه بجانبي فأنا أؤمن أن مكروهاً لن يصيبني ما دام هو هنا ، قلتُ مازحه: جواد!.. ألا تنام أبداً؟

ضحك قائلاً: لا أستطيع النوم فوجود فتاة هشة وسط هذا الجحيم يثير رعبي.

قلت متغابيه: ومن هذه الهشة هـــآ؟

إبتسم وأدخل يديه في جيبيه ناظراً للأعلى متفادياً عينيّ: لا أعلم... أتعلمين أنتي؟

قلتُ مازحتاً ضاحكة: دائماً ما تظهرأمامي فجأة وفي كل الأماكن... أتكون شبحاً؟

قال بتلك الجدية المهيبة ماداً يده لي: صافحيني ..

صافحته متعجبة من فعله وقد أحسستُ بيده كالعادة ثم أردف: لا يعني هذا أني لستُ شبحاً فحين يُجن المرء أو يصاب بمرض عقلي سيشعر بوجود أناس وقصص يراها ويتحسس طبيعيتها وصدقها إلا أن العاقل لا يرى شيئاً مما سعى المجنون جاهداً لبنائه من مأسي وأحداث.

كان ذلك الكلام غريباً بعض الشئ كأنما يمهد لي خبر جنوني علناً لكن على ذكر الجنون أصدقكم القول أشعر بوجود أحد ما يراقبني منذ خروجي من باب المطبخ وحتى الآن وقد أحسستُ بنظراته التي تراقبنا طيلة حديثي مع مايا إلا أني قررت تجاهله أوه!.. أشعر بخطوات صغيرة تقترب ناحيتي توقف صاحبها بجانبي.. ها أنا ذا أشعر بصغر حجمه إنه طفل تشبث الآن بملابسي.

: أمي أهذه لك؟بحثتُ عنها في تلك الكومة هناك.

كأني سمعتُ ذاك الصوت من قبل كما أنه صوت طفلة إستدرتُ ناحيتها ببط لأرى من هي؟ وماذا تقدم لي؟ وما إن وقعتْ عينيّ عليها حتى صرختُ فزعتاً وهممتُ بالركض بعيداً لولا أن أمسكني جواد من معصمي قائلاً: هيه هيه.. تريثي يا آنسة، تذكري أياً كان ما ترين وما مدى بشاعته فهو من مخيلتك وحسب.

نظرتُ في عيني جواد تارة وفي عيني الطفلة صاحبة التهويدة التي مازالتْ تردد كلماتها تارتاً أخرى، حينها قال جواد : هل أرافقك إلى المنزل؟ فقد عدتُ لأعرض عليك ذلك.

قلتُ خائفة: قبل ذلك صارحني جواد أترى بجانبك طفلة تحمل ذراع إمرأة؟

نظر جواد تماماً حيث هي ثم قال ببرود: أجل أراها بوضوح.

تنهدتُ كمن إنزاح جبلُ عن صدره ثم نطق مدمراً تلك الراحة التي غمرتني: هذا لا يجلب الراحة يا عزيزتي فالحديقة ممتلئة بالنسبة لي وهذه الطفلة كانتْ تمد هذه الذراع لأمها المنهارة حيث كنتِ تقفين.

قلتُ باكية: جواد بربك! لنرحل من هنا وحسب.

: طوع أمرك يا آنسة.

ثم خرجنا قاصدي المنزل قال جواد: أتعلمين؟ لم أخرج من القصر منذ عملتُ فيه.

: هذه مدة طويلة للغاية.

: لا حاجة لي بالتجوال فالناس لايؤمنون بصلاحي حتى الآن ويبتعدون عني حال رؤيتي" ثم أردف بعد صمت " فيما تفكرين؟"

: الطفلة.

: هل رأيتها من قبل؟

: آها رأيتها تغني لأخي رامي بالأمس.

: حالتك حرجة للغاية ترينهم في المنزل أيضاً.

قلتُ غاضبة: ما الذي تقصده بقولك هذا؟

ضحك: هه هه أمزح أمزح " ثم إستطرد مشيراً إلى شوارع القرية " لقد إنتهو من تعليق الزينة يآه كم هي جميلة رغم أن الإحتفال بهذا العيد لا يروقني.

قلتُ متعجبة : العيد! لقد نسيتُ أمره مضى على إستقلالنا ثلا.....

ماذا؟..

ألهذا الحد أنا جاهلة في الرياضيات؟ سأسأل جواد.

: جواد أتعلمـ..

أين ذهب ألم يكن هنا منذ لحظات تلفتُ يميناً ويساراً لم أجد أحداً، أياً يكن سأعد مجدداً هذه السنة سنحتفل بعيد الإستقلال الثالث بعد المئة فإذا ولدتْ مايا في العيد الحادي والسبعون كما قالتْ لكان عمرها الآن......إثنان وثلاثون عاماً مستحيل، مستحيل يبدو لي أنها قد أخطأت هه هه كلا كلا سأنسى الآن كل شئ وأحدثها في الأمر غداً.

وصلتُ المنزل لأجد زين ينتصب أمام الباب شارداً قال حينما رأني: ردينة! لقد تأخرت فقلقتُ عليك.

إبتسمتْ: أسفة فقد إحتجتُ بعض الوقت لإنهاء بعض الأمور "ثم إستطردتْ " هل أمي مستيقظة؟

: أجل فقد حرمها مرضها من النوم حتى، كما إشتد عليها في الآونة الأخيرة.

قلتْ: لم ألحظ ذلك؟

: بالتأكيد لن تلحظي فقد أصبحتْ حياتك تتلخص في العمل هناك وحسب.

هنا ومع هذه الكلمات التي رماها زين فوق كاهلي شعرتُ بمدى دنائتي، لم أفكر في والدتي ومرضها في الآونة الأخيرة شغلني ذاك القصر اللعين فلم أعد أرى إلا الأوهام أما الحقيقة فقد رميتها وأكملتُ طريقي نحو الهوة، تجاهلتُ زين تماماً وركضتُ قاصدتاً والدتي طريحة الفراش قبلتُ يدها وجثيتُ عند سريرها باكية في طرف تلك الغرفة الدافئة والمشاعر الخاصة الحميمة التي تولدها في داخلي تزينها شموع الإحتفال بحمرة تنتشر على أسطح ستائر مخملية اللون بجانب السرير الأبيض الذي كان مؤنس وحدة أمي في الغرفة التي شهدتْ عذابها منذ بداية مرضها وسمع حائطها بكائها وأنينها لكم تمنيتُ في تلك اللحظة أن أكمل ما تبقى من حياتي عند سريرها أخفف من آلامها وأقاسمها أوجاعها عجزتُ أن أكون إبنة مثالية أعتني بمن إعتنتْ بي بل عجزت حتى أن أكون مثل هذه الغرفة التي إحتضنتْ والدتي وآلامها.

قبلتُ رامي وتحسستُ بأناملي شعره الذي بدأ بالنمو، أذنيه وأنفه المحمر لكم إشتقتُ لتأمله وحمله بين ذراعي والغناء له، نمتُ هناك متكأتاً على طرف السرير عند والدتي وأخي الصغير لن أصف لكم كمّ الراحة والسعادة التي شعرتُ بها دفء العائلة الحقيقي يعود ويغمرني مجدداً عزمتُ لوهلة على ترك القصر ومايا وصهيب وجواد وكل من عرفتهم هناك والبقاء عند والدتي جالستاً هنا وحسب.

إستيقظتُ بعد ساعتين أو ثلاث ربما لأجد النشاط قد تجدد في عروقي إحترتُ ماذا أفعل فقد جافى النعاس عينيّ فخطر ببالي كتاب مايا فأحضرته وهممتُ بالقرائه.

" لتتقدم صفاء بخطى مترنحة نحو الكوخ الصغير المندس بين الأشجار والذي بدا يلوح لها من بعيد، خيّل لها أنها ترى المرأة التي تغني في نافذته إقتربتْ ثم إقتربتْ لتتأكد مع كل خطوة من جمالها إقتربتْ حتى أصبح باب الكوخ قِبَالتها ولاتزال تلك المرأة منتصبتاً هناك تغني

فتحتْ صفاء باب الكوخ ببطء لتجد المكان مظلماً من الداخل خيل لها ظل المرأة وهي تقف عند النافذة تغني إقتربتْ منها لتضع صفاء كفها على كتف المرأة: عفواً سيدتي.

تدحرج رأس المرأة وسقط الجسد فقد كانتْ ميتتاً سلفاً صرختْ صفاء خائفه مبتعدة توقف حينها الغناء كلياً تعثرتْ صفاء لتسقط أرضاً ساعدها ضوء القمر من النافذة على رؤية ما تعثرت به فقد كانتْ هياكل بشرية لأجسام متعددة تذكرتْ حينها كلام القروي: وآخرون ذهبو إلى الجبل يدّعون إيقاف الغناء ولم يعد منهم أحد حتى الآن.

حاولتْ الوقوف إلا أن قدميها قد شلتى سمعتْ صوت المرأة التي تغني وقد قالتْ: مرحباً يا عزيزتي أخيراً جئتي إليّ وتمكنتُ من رؤيتك عيب عليك مشاركتي في زوجي ولا تشاركينني ألامي التي سببها لي.

قلبتُ الصفحة لقرائة المزيد.

غريب!فارغة.

وهذه أيضاً.

وهذه.

كلها فارغة أوه! .. مهلاً هذه ممتلئة بالخربشات أميز منها فقط " هذا يؤلم " ما معنى هذا أين تتمة القصة هل هذه رواية حتى؟ كل الصفات تمتلئ بخطوط عشوائية لا مغزى لها إلا أني لاحظتُ في إحدى الصفحات الأخيرة كلمات أشبه بالرسالة مكتوبة بخط منمق.

" أسفة يا أختي العزيزة لن تتمكني من إكمال روايتك فقد خسرتِ عينيك الرماديتين اللتان أحبهما لكم حاولتِ وحاولتِ تكذيب أمر فقدانك لهما إلا أن هذا لم ينتج سوى العديد من الصفحات التالفة إلا أن نهايتها لاتزال محفورتاً في ذهنك منتظرتاً اليوم الذي تخرج فيه

محبتك إلى الأبد

أختك ياسمين "

منذ أول خطوت لي على عتبة القصر أُصِبتُ بعجز في وصف المشاعر فالآن حار قلبي بين الحزن والحيرة وعدم التصديق أتكون من كتبتْ هذه الكلمات ياسمين متوجهتاً بها إلى مايا صديقتي؟ لكن مايا التي أعرفها تبصر بعينها الرماديتان وهما في كامل جمالها، أتكون مايا صاحبة هذا الكتاب وهي من كتبه؟ أم أن جنوني يدفعني لأقرأ كلاماً لا وجود له؟ أتعلمون كل ما ذكرته صحيح إلا أنني لا أود تصديق ذلك عدتُ إلى البكاء الذي أصبح رفيقي مؤخراً محتضنتاً الكتاب.

رفعتُ رأسي بعد سماعي لضكات طفلتين فإذا بهما مايا وياسمين يلعبان في الغرفة فركتُ عيناي في عدم تصديق وقفتُ وإقتربتُ منهما فنظرا إليّ بسعادة وركضى بعيداً إبتسمتُ ورحتُ أتبعهما حتى خرجا من المنزل خرجتُ وحالما إبتعدتُ قليلاً سمعتُ صوت تلك الفتاة تغني لأخي مجدداً تجاهلتها وإستدرتُ مكملتاً مطاردة مايا وياسمين الطفلتين فقد كنتُ أريد معرفة وجهتهما ركضتُ وركضتُ ثم...

لا أتذكر شئ سوى نداء زين ثم صفعتاً منه لأتمكن من رؤية وجهه القلق.

قلتْ: أين نحن؟

: إلى أين كنتِ ذاهبة أيتها المجنونة إن تركتك وحدك لخرجتِ من القرية دون وعي.

: ماذا ولما أنت هنا؟

: تبعتك بمجرد سماعي لخطواتك فقد شككة في وعيك بالخروج ليلاً.

: أين هما؟

: من؟

: مايا وياسمين.

إرتسمتْ ملامح الأسى على محيا أخي وأمسك بيديّ قائلاً: لنعد إلى المنزل يا أختاه.

أكان كل ذلك ضرورياً من أخي.. أنا لم أجن صحيح؟ ضللتُ وسط تساؤلاتي تلك إلى أن توقف زين فإرتطمتُ به تحسستُ أنفي قائلة: أوه لما توقفتَ فجأة؟

رفعتُ عيني لأرى ما كنتُ تمنيتُ الموت قبل حدوثه أهذا منزلنا الذي ..الذي يحترق أمامي؟

لم أعد أرى شئ وأخر ما أبصرته كان ألسنة اللهب التي تلتهم منزلنا.

....

ماذا أشتم؟ يآه يالها من رائحة زكية فطيرة تفاح، إنبعث الضوء في عيني ببطء لأسمع بلهجة الفرح: يا إلهي أخيراً إستيقظتِ.

تمكنتُ من رؤية إبتسامته البلهاء، رغم ضبابيتها أدركتُ صاحبها وأين أنا بالضبط كنتُ ممدتاً على السرير المريح.. السرير الذي حملني إليه جواد عندما أغمي علي لرؤيته أول مرة في غرفة تقطيع الخضار، وها هو صهيب يجلس على الكرسي قبالتي: حمداً لله على سلامتك حمداً لله، لحظة سأبلغ مايا فهي تنتظر على أحر من الجمر.

خرج لبرهة ليعود معها كما تخيلتُ ملامحها تماماً كانتْ تبكي بشدة حتى إحمر أنفها أمسكتْ بيدي ثم قالتْ: عزيزتي حمداً لله أن تمكنتُ من رؤية إبتسامتك هذه مجدداً لقد خِفتُ كثيراً.

دخلتا ندى ومرام أيضاً ووقفتا بخجل أمامي: حمداً لله على سلامتك.

قلتْ: هه هه ولما كل هذا القلق؟ أنا لستُ بمريضة.

قالتْ مايا: لقد كان الدكتور رائف يفضل المشفى إلا أن صهيب أصر على بقائك هنا حيث تحبين كما كان الدكتور يحرص على زيارتك يومياً للإعتناء بك.

حاولتُ تذكر سبب إستلقائي منهكة هنا إلا أني فشلتْ: لما أنا هنا؟ ولما الجميع قلق؟

إمتقع وجه الجميع كما إمتنعوا عن الحديث تذكرتُ فجأتاً تلك النيران المشتعلة واللهب المستعر الذي يلتهم كل من أحببتُ في هذه الدنيا غطيتُ وجهي بملائة السرير وقلتْ محاولتاً كبتَ بكائي: أين أمي وإخوتي هل هم بخير؟

قالتْ مايا بأسى: سأستدعي زين ليحدثك.

ثم إنسحب الجميع من الغرفة وأطلقتُ العنان لبكائي إستمريتُ في إسترجاع الذكريات الجميلة معهم وأعض أصابعي ندماً على مغادرة المنزل حينها، عند المغيب سمعتُ صوت الباب يُفتح أبعدتُ الملائة وقلتُ بعينين متورمتين: زين هل هذا أنت؟

تقدم ظلها الصغير ناحيتي تاركتاً خلفها آثار قدميها الصغيرة وقطرات الدم من يد أمها التي تحتضنها كدميه، إنتصبتْ تلك الطفلة بالقرب من سريري قائلة بصوتها الرقيق الطفولي الذي كان مرعباً وسط الظلمة: لما غادرتي المنزل ها؟

: من أنتي؟ إبتعدي عني.

: ألا تريدين معرفة ما حصل في غرفة والدتك قبل الحريق، كنتُ هناك أغني لأخيك رامي كالعادة.

قلتُ كالمجنونة: أتكونين أنتي من أشعله؟

: أنا ميته ولا أستطيع فعل شئ هنا.

قلتُ مترددة: ما الذي حدث؟

إبتسمتْ بخبث قائلة: كنتُ أغني للصغير فشعرتُ بتشنجات غريبة في جسد أمك ثم همتْ بمناداتك أنتي وزين إلا أن جسدها كان هالكلاً لا محالة فلم تخرج تلك النداءات والصيحات إلا تمتماً لا يسمعها إلا طفلها، صُمَّتْ آذانكم عن سماع إستغاثة والدتك الأخيرة أرادتْ الوقوف لتوديعكم إلا أن يدها زلتْ وأسقطتْ ما تسمونه بشموع العيد على البساط ومن هنا بدأتْ النيران تغمر الغرفة ولازالتْ تمتمتُ الأم تعلو راجيتاً قدوم أبنائها إلا أنها يأستْ أخيراً وودعتْ تلك الحياة وسط لهيب النيران سمع فؤاد بكاء رامي فأتى إلى الغرفة وتقدم نحو أخيه وأمه ليوقضها فإذا بالنيران تحاصر الغرفة ويهلك الثلاثة معاً أمام ناظريّ لكن أين الأبناء؟ الفتاة تلحق بأحلامها المجنونة وأخوها الأبله يركض خلف أخته خشيتَ فقدانها وترك أمه العاجزة وأخويه ليفقدهما وسط النيران.

صرختُ فيها من بين دموعي: لم أقصد ذلك أقسم لك! لم أقصد ذلك لكم تمنيتُ البقاء والفناء هناك إلا أن الله شاء لي البقاء وتوديع عائلتي.

: على كلٍ لا تقلقي فقد بقيتُ هناك أغني لأخويك الصغيرين تلتهمهما النيران ببطء حتى تأكدتُ من نومهما النومة الأبدية.

شعرتُ حينها بسواد في قلبي وتمنيتُ قتلها تجمع الغضب ليعمي بصيرتي تلفتُ يمنتاً ويساراً أبحث عن شئ ما لأقتلها فوجدتُ صينية فواكه ومعها سكين لربما قد وضعتها مايا سلفاً، إندفعتُ من فراشي ناحيتها ممسكتاً بالسكين إلا أنها إبتسمتْ إبتسامة ملؤها الخبثكمن يقول " إفعليها وستندمين " ولم تتحرك ساكنة حاولتُ غرز السكين في قلبها إلا أنها قاومتني بشدة

ودون إستخدامها يدها الأخرى ثم سمعتُ صوتاً آلفه يقول فزعاً: ردينة هذا أنا ردينة توقفي ما بك؟ ردينه!

ثم تعثرتُ وسقطنا معاً لأتمكن في تلك اللحظة من غرز السكين بقوة، فكّرتُ لوهلة بالأمر هي طفلة فكيف أصبحتْ أطول مني فجأة كما أنها ميته كيف تمكنتُ من غرز السكين في جسدها، كنتُ أسمع نبضات قلبها في أذنيّ وهي تضعف تدريجياً إتكأتُ لأتمكن من رؤيتها فإذا بالدم يتجمد في عروقي وإذا بوخزة شديدة في قلبي ثم قال من غرزتُ السكين في جسده بكلمات متقطعة: أنا أسف.. أسف بشأنك إضطررتي إلى توديعنا واحداً تلو آخر.. دخلتُ هذه الغرفة قاصداً مساندتك في هذه الأزمة فإذا بي أودعك فيها ..أقدر مرضك أنا آسف فقد كنتُ قادراً على منع حدوث هذا بمنعك من العمل هنا ... كوني قوياً يا عزيزتي فقد نويت مصارحتك بالحقيقة منذ مدة وحان الآن الموعد.. هذا ... القصر الكبير الذي عشقته وعشقتي خدمه في الحقيقة هو قصر م...

إنتهتْ كلماته وارتخى جسده وغادرتْ روحه المكان، فُتِح الباب حينها بقوة لأرى الدكتور رائف قلقاً: زين ..ردينة هل أنتما بخير؟

لتقع عينه على الفاجعة جثا على ركبتيه وأبعدني ثم هم بتفحص زين الذي كان ممداً على الأرض في بركة دمه الصغيره ووضع رأسه على صدره ليبتعد شاحباً فاقداً الأمل الذي كان يحمله إمتلأتْ عيناه بالدموع ونظر إليّ وقد كنتُ في حالة يرثى لها تلطختْ يداي وملابسي بدمه خلى محياي من التعابير ثم قال رائف معتدلاً في جلسته مواسياً لي: هدئي من روعك يا إبنتي فأنا أقدر وضعك هذا، سبق وأن حذرتك من العمل هنا ولكن لم تكترثي سمعتُ عنك من زين كل شئ فقد كان قلقاً عليك وأراد لك دائماً أن تكوني على دراية بالحقيقة هذا القصر خاوي لا عمال فيه، تسكنه فقط عائلة حازم التي أصيبتْ بربكة دماغية فهم الآن

يرون الحياة طبيعية بخدمهم وحشمهم، كل ذلك حدث بسبب طمع السيد أسامه وقبوله بعرض الفاسدين من الدولة هجره العمال ومنهم من إنتحر بسبب ما يراه ومنذ ذلك الحين لم يدخله بشر سواك، كما حدثني زين بأمر جواد ومايا أما جواد فقد كان إبن حازم وحالما أنكره والده ثم عاد له بطلب للعمل هنا كان يقصد العمل في الجزء المحرم، رفض جواد ذلك إلا أن الخيار لم يكن له بعدما رأى ما رأى فعمل هنا متظاهراً بقسوته إلا أنه يساعد الأسيرات في السر فتعرف على ياسمين وقررا الزواج بعد خروجها من هنا فقد كان يحاول جاهداً الوصول إلى الصالحين من الدولة وإخبارهم بأمر التجاوزات التي تحصل هنا منتظراً حلول الفرج وبعد مرور الأيام والأشهر أتى سعيداً يوماً ما ليخبر ياسمين بأن الشرطة قادمة للتحقيق فيما يحصل هنا فوجدها ملقاة على الأرض وما كان سيتعرف على ملامحها لولا وجود أختها مايا ترثيها بجانبها همّ جواد ببكاء ياسمينته إلا أن السكين كان قد دخل في جوفه فقد أنسته الفرحة عندما أتى بالبشرة لإخبارها أمر الجنود الذين لا زالو في الأرجاء وقد سمعوا إعترافه الجهري بخيانتهم للتو، ثم أتتْ الشرطة لتخليص الأسرى وتنظيف القصر من الجثث والتخلص من ثلّة الجنود الفاسدين فقد كانتْ تلك المجزرة محرمتاً قانوناً ولا يعتبرنَ هؤلاء أسرى حرب فقد أعلنتْ حينها الدولة إنتصارها في الغزو وأن سكان ذاك الجزء قد أصبحتْ لهم حرمة كسائر المواطنين، أنا أؤمن أن ذلك قد كان جزء من تملقهم وإظهار إنسانيتهم المزعومة فيغلق هذا القصر كمسرح لإحدى أكبر المجازر في تاريخ الدولة، أما عن مايا فقد تحققتُ من كشوفات لأسماء الناجيات من تلك المجازر وللأسف لم أجد إسم مايا فيها .

مهلاً..

مهلاً..

تكدستْ الأمور هنا ولم أعد أفهم ما يقال حولي أيريد هذا الرجل أن أصدق بأن كل من قابلتهم هنا كانو محض جنون مني.. كل الوقت الذي أمضيته هنا سعيدتاً كنتُ في الحقيقة وحيدتاً فيه.. كل المشاعر والأحاسيس التي شعرتُ بها هنا لم تكن موجودتاً أصلاً..
خرجتُ منهارتاً إلى الحديقة، وصلتُ أخيراً.. أمام مكاني المفضل الذي لا طالما جلستُ فيه أنا ومايا وجواد وتحدثنا بسعادة غامرة معاً.. وقفتُ مترنحتاً عاجزتاً عن البكاء حتى، مرتْ دقائق ودقائق وأنا أقف هناك مشدوهتاً عاجزه.. إستدرتُ ثم صرختُ بكل قوة مفرغتاً ما إجتاحني حينها: مــايـــا! جـــواد! صهـــــيب!

أغمضتُ عيني لأفتحهما وأرى كل من أحببته في هذا القصر يقف أمامي كل من قابلتهم كانو هناك يتصدرهم الأعزاء على قلبي مايا وجواد وصهيب قلتُ باكيتاً منهارة: أتريدون مني تصديق ذلك؟... هل أنتم هنا حقاً؟... هل أحاديثنا وضحكاتنا معاً لم تكن سوى تخيلاتٍ في عقلي؟ ... هل تدركون كم أحببتكم؟... كنتم كل ما أملك بعد ضياع عائلتي كنتُ أخاف حد الموت حينما أدخل هذا القصر إلا أني تغاضيتُ عن كل هذا من أجل من؟... من أجلكم ... شعرتُ بالسعادة الغامرة معكم.. أنتي يا مايا صادقتك حتى أصبحتي أغلى عليّ من نفسي.. وأنت يا جواد ألم تقل بأنك ستكون معي إلى الأبد لتحميني؟ ألم تكن بئر أسراري ومصدر إطمئناني؟..وأنت يا صهيب أكانتْ نكاتك وضحكاتك مزيفة؟ .. أترضـــون؟ .. هآه.. أترضون بعد كل هذا أن تكونو محض تخيلات في عقلي اللعين.. مجرد جنون قد أصاب دماغ فتاة تافهة لم يكن لوجودها ذكر قبل دخولكم حياتها بئساً!..

بئساً لكم وللقصر...

بئساً لعقلي الذي أوجدكم وقلبي الذي أحبكم...

بئساً...

..

...

....

ذاك الظلام اللعين مجدداً، لا أسمع صوتاً ولا أرى ضوئاً ولا أتحسس شيئاً.

لا شئ سوى الظلام والكثير من الألم.

الكثير منه..

....

تلك الطفلة مجدداً إنها تتأمل والدتها الميته قائلتاً باكية: أمي غني لي هيا أمـي.

تيأسُ تلك الطفلة لتحتضن أمها وتغني لها بصوتها الطفولي مرتعش تلك التهويدة التي أحبها والتي أدندنها بلا سبب.

"نام .. نام .. نام صغيري نام .. نام بين يديه .. قطعت خيزران .. نام .. نام .. نام أغمض جفنيه .. نام أصبح ملك الأحلام "

أأكون قد سمعتها منها؟... كلا، لا أظن.

....

أليس هذا صوتها؟ مايا ...هي الأخرى أراها الآن تنظر إلى النافذة وتغني أغنيتها " أيتها الفراشة.. رفرفي بعيداً ..بعيداً جداً عن ياسمينتي.. وإلا فسؤقع جناحيك الفاتنتين ...وأنا أراقب صامته..."

أدركتُ حينها لما كان نصب الفراشة مكسور الجناح فقد كانتْ مايا تتوعده من الإقتراب من ياسمين أختها التي دُفنتْ بالقرب من النصب، أخيراً تجمع شتاتي وفهمتُ كل شئ يدور من حولي إلا أن الظلام عاد مجدداً.

.....

ماذا!....

ها أنا أستيقظ مجدداً إلا أن الضوء المنبثق من الخارج قوي أنحن في الظهيرة؟.. كانتْ رؤيتي مشوشتاً نسبياً تمكنتُ من إدراك أنني مستلقية على أرضية باردة ولا أستطيع الجلوس حتى، أنا منهكة حد الموت .. من هذه؟ .. أترونها ها هي ذي بجانبي؟ .. فتاة ترثي أخرى مستلقية بجانبي أهذا دم؟ .. يا إلهي! هناك الكثير منه، رفعتُ كفيّ لأراهما فإذا به قد تخثر عليهما كما أن الغرفة قد إمتلأتْ بالنساء.. منهنّ من تتأوه.. ومنهنّ من تبكي.. ومنهنّ من أصبحنَ جثث هامدة، هممتُ بسؤال الفتاة إلا أنها رفعتْ رأسها ناحيتي فصدمتُ.. أهذه مايا؟ ولما عيناها مغلقتان؟

: أأنتي حية يا آنسة؟ كانتْ أختي مؤمنتاً بنجاتك.

ولما تحدثني الآن كالغريبة ألسنا أعز صديقتين؟.. أقالتْ أختي؟ .. توجهتُ بنظري إلى الفتاة التي يغمرها الدم فإذا بها ياسمين! أنا لا أفهم.. ألم يمض على وفاتها أحد عشر عاماً أم هي الأخرى شبح؟ قلتُ متسائلة: مايا أهذه أنتي؟

تعجبتْ: أجل.

: ومن هذه؟

إزداد تعجبها: هذه أختي ياسمين التي أنقذتْ حياتك وقامتْ بإيقاف نزيفك.

تعجبتُ أنا هذه المرة وقلتُ: نزيفي؟!.. مهلاً مهلاً لما عيناك مغمضتان؟

قالتْ باكية: لقد فقدتهما حين إعترضتُ على فعل ذاك المتوحش الذي قطع ساقك.

أتهذي هذه أم أنّي لا أسمع جيداً حاولتُ جاهدتاً رفع ناظرياً نحو ساقيّ حتى تمكنتُ من رؤيتهما، ساقي اليسرى! يا إلهي....

دُفِعَ حينها الباب بقوة ليدخل أحدهم لاهثاً وحالما رأيته شُلّ دماغي تماماً وعجز عن التفسير، مايا وياسمين.. ثم جواد الآن قال بسعادة دون النظر إلينا حتى فقد كان يلتقط أنفاسه: أخيراً ياسمين!.. أخيراً يا مايا!.. لقد أتتْ جهودي بثمارها والشرطة في طريقها إلى هنا لتخليصنا.

تلاشتْ إبتسامته وذُهل عندما وقع بصره على ياسمين وهي جثة هامدة دون حراك إلى جانبي، إنتقل بصره إلى مايا فأدرك حقيقة خسرانها بصرها، عجز عن الكلام واكتفى بأن جثى على ركبتيه أمامي وهذا ما خيل إليّ فهو قد إنهار أمام ياسمينته باكياً: لقد تأخرتُ يا عزيزتي! لقد تأخرتْ.

بكيتُ لبكائه كما فعلتْ مايا ثم قالتْ هي: لقد كانتْ تنتظر مجيئك بفارغ الصبر.

إستمر البكاء حتى لاحظتُ دخول رجل من الباب يحمل سكيناً يسير ببطء متعمداً ذلك خشيتَ تنبه جواد به، جمّعتُ ما تبقى في جسدي من قوى لأحاول سحب جواد من كمه ناحيتي لتفادي الغادر به مناديتاً بإسمه " جـواد! " إلا أنه أبعد يده ثم قال مستنكراً مخاطباً مايا: من هذه؟

غرز جواد سكينتاً قاتلتاً في قلبي بهذه الكلمات التي حطمتني كلياً كما غرز ذلك الرجل سكينه في قلب جواد، سقط الأخير ميتاً بجانبي دون حراك مهلاً هل تمكنتُ من الإمساك

بيده قبل قليل أيكون هذا جواد الحقيقي يموتُ أمامي وأخسره للمرة الثانية، تقدم ذلك الرجل غاضباً نحو مايا وقال: أوتجرؤين على التآمر علينا أيتها الخسيسة؟ خذي.

ثم طعنها بالسكين الذي قتل به جواد ليكون ثلاثة ممن أحبهم جثثاً أمامي وكالعادة أبقى أنا وحيدتاً أتعذب على فراقهم فقد ظنني الرجل ميتتاً من زهور الياسمين الحمراء التي تغمرني...

أنا مستلقية بجانبي جثث أحبائي الثلاث في غرفة باردة ذات رائحة نتنه، تلك الغرفة أو بالأحرى تلك الغرف لا يسمع منها سوى البكاء والأنين والصراخ لايرى فيها إلا الدم الأحمر الناصع لا تضوع منها إلا رائحة الجثث العفنة لا يدخلها إلا إثنان المسكين الذي سُلِبَ كل شئ والمعذِّب المتلذذ بطعم الألم غرفة باردة خاوية لا شئ فيها سوى الوحدة، ليعود لي الظلام هناك ويغمى عليّ.

..

من الرائحة فقط أجزمتُ بوجودي داخل المشفى فتحتُ عيني لأتمكن من رؤية الممرضة التي إرتسمتْ الإبتسامة على وجهها اللطيف حال معرفتها بإستيقاظي قالتْ: حمداً لله على سلامتك آنسة ردينة.

: أين أنا؟

: في مشفى خاص فقد طُلبتْ منا عنايتكنّ بأفضل ما يمكن.

: ومن طلب هذا؟

: أحد مسؤلي الأمن العام فقد قيل لنا بأنكنّ ناجيات من مجزرة القصر الكبرى وأنكنّ من مواطني ذاك الجزء وقد أصبحتم الآن مواطنين متساوون في الحقوق معنا.

: وكيف ذلك؟

: لقد أعلنتْ دولتنا نصرها في الحرب ودخول ذاك الجزء رسمياً في مخطط دولتنا.

إبتسمتُ ثم قلتُ للممرضة ناظرتاً لها بإستسلام: سأسألك سؤالاً غريباً بعض الشئ، كم مضى على إستقلال دولتكم؟

: دعيني أتذكر، آهــا!.. سنحتفل هذه السنة بعيد الإستقلال الحادي والتسعون.

إبتسمتُ وأطلقتُ تنهيدتَ راحة من صدري ثم قلتُ : كما ظننتْ.

غادرتْ الممرضة أما أنا فتأملتُ السماء الزرقاء الصافية من النافذة أزيل من رئتي تلك الأنفاس الكريهة بعطر الزهور الذي يسبح مع نسائم الهواء مستمرتاً في الإبتسام.

أمي المريضه، أبي الجندي، زين البطل، رامي وفؤاد العزيزين، إنتظاري لسماع دندنات الساعة كل يوم، مايا صديقتي التي أحب العمل معها، جواد الذي كان سنداً لي ومخفف آلامي، صهيب بضحكته البلهاء ونكاته المبتذله، الحديقة وأزهارها والبستاني العجوز، صفاء وكريم والجبال المغنية، الدكتور رائف وكل الأحداث التي عشتها....

كل ذلك كان مجرد حلم.

حلم تمنيتُ فيه عائلة محبة فأنا يتيمة لا عائلة لديّ، حلم تمنيتُ فيه مصادقة مايا وياسمين اللتان إلتقيتُ بهما في القصر بعد أسرنا وهما لم يكترثا لأمري حتى، حلم تمنيتُ فيه أن يهتم بي جواد أنا بدلاً عن ياسمين بعد أن رأيتُ وفائه لها مراراً وتكراراً، حلم تمنيتُ فيه الحرية وسط دولتي على أن أجر كأسيرة هنا وهناك.... لكن لما كانتْ أمي مريضة وأبي خائن للدولة؟ لما كان زين يتألم بشدة ليجلب لنا قوتَ يومنا؟ لما لم أكن أميرتاً لذاك القصر وكنتُ مجرد خادمة مجنونة فيه؟ لما تعذبتُ بشدة وهو مجرد حلم؟ لما لم تكن حياتي فيه مثالية كما في باقي

الأحلام؟ أهو نحس؟ .. أم هو واقع مرير توجب عليّ عيشه حتى في حلمي؟ ألا يحق لي الإبتسام والشعور بالسعادة حتى في تخيلاتي؟...ربما .. فهذا قَدَر الأسير على أية حال..

حلم لا بل حياة عاشتها أسيرة في قصر داخل مخيلتها إختارتْ فيه أناساً لم يعرفو إسمها حتى ليكونو أعزاء على قلبها في حلمها إلا أن الأحلام السعيدة تصبح فجأتاً أبشع من الواقع أحياناً.

كان حظها سيئاً كفايتاً لينغص عليها حلمها السعيد حلم فتاة يتيمة إسمها ردينة.

بعد مرور عدة أشهر تحسنتْ حالتي كثيراً فقد تقبلتُ الواقع المرير بصدر رحب وأكملتُ حياتي طبيعية كما كانتْ، إلا أنّ ذلك لم يخلو من الأحلام المتكررة التي تصحبني كل ليلة إلى حظن أمي وقلق زين، نعومة رامي وبلاهة فؤاد، إلى القصر الجميل والحديقة الفاتنة، إلى إبتسامة مايا ودفء جواد، إلى ظرافة صهيب وغرابة ندى والأخرياتْ، كل يوم كنتُ أعود إليهم لأعيش معهم مغامرة جديدة أضمها إلى ألبوم ذكرياتي الخياليّ، وفي أول مرة أنظر فيها إلى المرءاة بعد الغيبوبة صُدمتْ ألهذا الحد أثر فيّ ذاك الحلم؟ أنسيتُ شكلي الحقيقي؟ ضحكتُ على نفسي كثيراً فلم أنسى تجميل ملامحي حيث.. أنا محرجة بعض الشئ لقول هذا لكن كنتُ أقل جمالاً بكثير من تلك الردينة التي في الحلم لم يكن شعري ناعماً إلى ذاك الحد بالإضافة إلى أنه قصير كما إمتلأ خداي بالنمش، أما عيناي فهي ضيقة بعض الشئ إلا اني سعيدة بما عليه الآن، في إحدى المرات التي تهيجتْ فيها ذكريات الحلم في فؤادي سألتُ إحدى الممرضات التي تقربتُ منها مؤخراً وقد أصبحتْ صديقتي بالفعل أن تحضر لي سجلات لأسماء الناجين من المجزرة، لم اجد إسم مايا ولا ياسمين ولا جواد كلهم رحلو عن هذه الدنيا، فسألتها معروفاً أخر ألا وهو دعوة صهيب إلى هنا لأتمكن من التحدث إليه، تعجبتْ كثيراً لطلبي إلا أنها أجابته لي بصعوبة بعد مدة طويلة، فدخلتْ عليّ حينها لتقول

: ردينة، السيد صهيب هنا.

إندفعتُ بسعادة قائلة: حقاً! أريد لقائه في حديقة المشفى تعاليّ وساعديني بسرعة.

خرجنا إلى حديقة المشفى الرائعة، مساحة كبيرة خضراء تصطف على حوافها الشجيرات المقلمة بعناية، بلإضافة الى أحواض الزهور الواسعة زاهية الألوان، ساعدتني الممرضة في الجلوس على إحدى الكراسي الخشبية التي تنتشر في أرجاء الحديقة، قالتْ بسعادة وهي تراني أرتب مظهري: سأنادي السيد.

بعد إنتظار لم يدم طويلاً رأيتها تشير ناحيتي من بعيد ليتقدم هو إليّ في خطوات رجولية ثابته لكن هالة البلاهة تلك لم تبرح محلها، مع إقترابه تزداد ملامحه وضوحاً بالنسبة لي، أنه أكثر نضجاً ممن رأيته في الحلم الشعر الكستنائي ذاته، إلا أن عينيه تنضحان بالون الأزرق القاتم ووسط شروذي لم ألحظ وقوفه أمامي ماداً يده للمصافحة حتى قال: عفواً ..آنسة ردينه صحيح؟

إبتسمتُ قائلة: آه.. عفواً أنا أسفة.. أجل أجل ردينة.

أشار إلى الكرسي: هل تسمحين؟

: أجل، تفضل.

جلس بكل هدوء على العكس من صهيب الصاخب الذي أعرفه: عفواً يا آنسة هل لي أن أعرف سبب دعوتك لي.

: قد يكون السبب غريباً لكن ..ألم ترني من قبل؟

تأمل ملامحي للحظات ثم قال: ربما، أكنتِ بجانب مايا وياسمين في الأسر.

دق قلبي الطبول فرحاً فقلتُ بإبتسامة: أجل أجل أنا هي، لكن ألم ترني في مكان آخر؟

إندفعتْ شفتاه تهدم أمالي قائلتاً: كلا..بتاتاً.

تسائلتُ بحزن: أتعرف جواد؟

رفع حاجبيه في تعجب: بالتأكيد فقد كان أعز صديق لي، فهو يساعدني على رؤية مايا بين الحين والآخر إذ لم يكن من المسموح دخول أحد إلى هناك ..إلا أنه..

هنا فجأتاً وعند هذه اللحظة شعرتُ بصهيب القديم يعود فعادتْ معه آلامي وشعرتُ برغبة عارمة في قول كل ما يثلج صدري فصرختُ وقد تركتُ العنان لدموعي وشهقاتي

: صهيب أوتعلم؟ أنا أكثر من تعذب فيكم هنا.. أنا المسكينة اليتيمة التي أنشأتْ لنفسها عائلتاً تحبها في منزلها الخيالي الصغير لأتألم لفقدانهم واحداً واحداً فأستيقظ لأفقدهم مجدداً دفعتاً واحدة.. أنا التي تمنيتُ صديقة تشاطرني أحزاني وتساندني في مشاق الدنيا ..وحالما حصلتُ عليها ...تكون هي الأخرى جنوناً مني فأبكي ..وأبكي لأستيقظ وأجدها تنكر صداقتنا وأفقدها أمام عينيّ مجدداً.. أتعلم من هي؟ مايـا يا صهيب إنها مايـا..وماذا عن جواد الذي سرقته في حلمي من ياسمين المسكينة التي كان جواد الشئ الوحيد الأبيض في حياتها السوداء بعد أن خصصها ذاك المسن بالمزيد من الألم لتخيله بأنها زوجته.. جواد الذي خسرته مجدداً بعد إدراكي للحقيقة.. أنا الوحيدة هنا التي تألمتْ لكل ألم ضعفين.. أجل تألمتُ كثيراً..

عندما وقع بصري عليه مجدداً وجدتُ الدموع تنهمر بغزارة على وجنتيه فقال محاولاً التماسك: في الحقيقة .. أحستْ مايا برغبتك في صداقتها إلا أن الظروف لم تسمح بذلك ولطالما أرادتْ إعطائك هذا الكتاب ولكنها لم تكمله فقد فقدتْ بصرها كما تعلمين.

إمتدتْ يده ناحيتي لتحمل كتاباً ما وحالما أمسكته قرأة إسمه بصوت عالي: الجبال المغنية.

ها هو الكتاب الحقيقي بين يديّ الآن بعد أن قرأته في حلمي، وكيف يقرأ المرء كتاباً في حلمه لم يمسه يوماً على أرض الواقع، إلا أني مؤمنة بأن حلمي ذاك لم يكن بالعادي، تأملتُ صفحات الكتاب لتعود بي الذكريات إلى المكتبة هناك حيث قاطعتني الأمينة بأسإلتها الغريبة التي أدركتُ مغزاها الآن، وجلوسي بجانب سرير والدتي في تلك الغرفة التي أتحسس دفئها إلى الآن، كيف لكل تلك الأحاسيس أن ترضى بأن تكون محض تخيلات مني، أفقتُ من شروذي على صوت صهيب يقف ويتأهب للرحيل: عفواً يا آنسة لقد تأخرتْ، عليّ الرحيل.

إبتسمتُ بعينين متورمتين وقلتُ بإمتنان: شكراً لك على تلبيتك لدعوتي يا سيد صهيب.

وكانتْ لفظة آنسة منه وسيد مني كفيلة بإنتزاع شعور الألفة الذي إنتابني لوهلة لأدرك بأن صهيب هذا لم يرني من قبل إلا غريبتاً عنه كباقي الفتيات، ودعتُ صهيب الحقيقي لآخر مرة في حياتي فقد قررتُ عدم رؤيته مجدداً كي لا تمحى ذكرى صهيب الأبله محب النكات من مخيلتي ولن أرضى بوجود صهيب ومايا وجواد إلا من رأيتهم وأحببتهم وكانو لي خير الأُنس، طأطأتُ برأسي ليواجهني مجدداً ذاك الغلاف المخطوط بيديها " الجبال المغنية " لأقول لنفسي ها هي مايا ذي قد كتبتْ قصتها الخاصة التي ما كنتُ أرآها إلا درساً لي فقد كانتْ تعلم بمشاعري تجاه جواد وقد نبهتني هنا أن ياسمين التي تغني في الجبل قد عانتْ الآلآم من جحيم المسن كريم لتجد الأمل في عينيّ جواد، بينما أتتْ صفاء البلهاء تحاول سرقة الأمل منها لتتفاجئ بآلآمها السابقة، لما لا أكتب قصتي أيضاً، آراها تستحق القراءه وسيكون إلهامي حديقة القصر التي سأرآها في كل منام لأسمع المديح من عائلتي وأحبائي وأقضي المزيد من الوقت معهم وسأقول لهم كل ما لم أستطع قوله مسبقاً، وسأعترف لهم

بأنهم كانو ولازالو كل ما أملك في هذه الحياة، وسنعود الخماسي مجدداً بإنضمام ياسمين لنا.. أجل سأشرع الآن في كتابتها.. تُرى كيف ستكون البداية؟ .. لقد وجدتها!

إنتشر صوت دقات ساعة الحائط فخمة الطراز مشيرتاً إلى حلول منتصف الليل، كانتْ دندنات الموسيقى تلك بالنسبة لي الصوت الذي يشعرني بالسعادة.....

تمتْ بحمد الله

***